

قاع المدينة

هي . . هي لعبة

الردح كالزغاريد فن مصري أصيل ، وكما أن الزغاريد لا تجيدها كل النساء فكذلك الردح هناك متخصصات فيه يحفظن عدداً لا نهاية له من الشتائم والأوصاف ، بعضها عادي وبعضها فيه تشبيهات واستعارات وكنائيات ، وبعضها أدب خالص . ولا يكفي الحفظ بل لا بد أن يكون في استطاعة الواحدة منهن ان تلضم الكلمة في الكلمة بلا تردد أو توقف ، وتصنع من الشتائم سيالا متدفقا لا ينقطع ، فاذا انقطع وقع المحال . ولا بد للشتمة المستعملة من وقع وموسيقى ، ولا بد أن يكون للصوت المستعمل مقام معين يرتفع في الأماكن المهمة الى «السوبرانو» ، وينخفض عند بعض الكلمات الماسة الى «الألتو» . فمع أن المسألة شتيمة في شتيمة الا أن هناك على كل حال شتائم لا تبصح ، ونحن شعب مؤدب وخجول بطبعه . ثم لا بد للرداحة من موهبة فطرية تستطيع بها أن تخرج أرفع الأصوات وأعلاها بأقل مجهود ، حتى لا تستنفد طاقتها وحتى تستطيع الصمود . فالردح مسابقة والفائزة هي من يعلو صوتها ويظل عاليا الى النهاية .

والفنون كالغذاء لا بد من مزاولتها على الدوام . . وكان طبيعيا

اذن ألا ينقطع الرشح عن الحارة ليلاً أو نهاراً، ولا يعرف عطلة أو راحة.

وفي ذلك اليوم وشعبان عائد من عمله بعد الظهر بقليل، والدنيا تسبح في أشباه السكون. . في ذلك اليوم ما كاد يضع قدمه في أول الحارة حتى دق قلبه، فقد سمع ردها عالي الوطيس يواتيه من آخرها. دق قلبه لأنه خاف أن تكون الخناقة مع امرأته. . وامراته غلبانة من الأرياف، وإذا كانت الخناقة معها فعوضه على الله فهي مبتدئة لا تستطيع أن تجاري بطلات المدينة. صحيح انها بدأت في الآونة الأخيرة تتعلم، ولكنها لا تزال (تطبخ) كما يفعل الرجال حين يتعلمون السباحة على كبر. كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تقف في النافذة وتوارب الشيش وتحاول الرد على غريمتها. وتخرج ردودها بعد جهد فهي ريفية خجول لا تستطيع أن تحشوفهما بكلمة فارغة مثلما تحشونساء المدينة أفواههن، ولذلك فمهما قالت فكللماتها تتساقط كأوراق الخريف أمام التيار اللافح الذي يهب عليها من فم غريمتها.

وصدق ظن شعبان فالخناقة فعلاً كانت مع امرأته، وكانت واقفة لا حول لها ولا قوة كما توقع وامرأة ابراهيم أفندي قد وقفت في بلكونتهم وصوتها يجيب التائهيين. والناس تتفرج بكل قحة، وهي لا ترك شاردة ولا واردة الا قالتها.

وقف الرجل يسمع عله يعثر على سبب للخناقة أو يرى الى أي حد وصل النزاع، ولكنه ما كاد يتوقف حتى فار الدم في رأسه،

كانت المسألة قد وصلت له هو شخصيا وأتت على رجولته ثم تعدته الى أبيه وأمه وذقون أجداده أجمعين .

ودق الباب كثيراً قبل أن تفتح فهيمة امرأته . وامرأته سمعها ثقيل وبابهم أصم ولهذا طال دقه . ثم انفتح الباب وما أن رآته فهيمة حتى شهقت وبكت وأمطرت في الحال دمعا ! وكاد يرفع يده ويرنها قلما وهو حائق على خيبتها وقلة محصولها من طول اللسان ، ولكنه تردد ، فلا بد للخناقة من سبب ولا بد أن يعرف السبب .

وزعق زعيقا هائلا يسأل عن السبب . واعتدلت امرأته واختفت دموعها فجأة كما بدأت وقالت :

- ابنك انقتل !

واشارت الى الكنية . وسقط قلب شعبان بين قدميه وكاد هو نفسه يسقط على الأرض مغشيا عليه لولا أنه حذق في الكنية . . كان ابنه جالسا القرفصاء فوقها ورأسه معصوبا بمنديل ، وعلى المنديل بقعة دم كبيرة ، وفي وجهه خرايش ، وفي عينيه نظرة فأر وقع في المصيدة . . ولم يكن مقتولا على اية حال .

وما كاد الولد يرى أباه ينظر ناحيته حتى تولاه رعب هائل وبكى بصوت عال وقال :

- أنا مالي ؟ .. هه .. هو اللي ضربني الأول .. هه ..

وملأ شعبان صدره بالهواء بقوة محاولا كتم غيظه ، ولولم

يخرج الهواء ويتنهد لانفجر. القضية كانت قد بدأت تتجسد أمام عينيه، فلا بد أن واحدا من أولاد ابراهيم أفندي هو الذي ضربه و ابراهيم أفندي له ثمانية أولاد، لا بد أن الضارب هو الولد الرفيع مثل عود القصب الذي يجري طول النهار ينطلقون أصفر قصير وسيقان جافة. . وهو لن يستحمل منه خبطة ولا لكمة. ولكن هل يمد يده على طفل؟ ثم كيف لم يغلبه ابنه الخائب مثل أمه؟ ابنه صحيح أصغر منه في السن وأدق منه في العود، ولكن كيف يغلب أي ابن في الدنيا ابنه؟ وكيف يجرحه ويبطحه؟

وتقدم شعبان. كان لا بد من رؤية الجرح قبل كل شيء، وما أن رآه الولد يقترب حتى انكمش إلى طرف الكنبه ولم يوقفه عن انكماشه إلا انتهائها، وغمغم شعبان وهو يسبه ويلعن أباه ويهدىء من روعه ويطمئنه الى أنه فقط يود رؤية الاصابة. وامتل الولد بعد تهديد وظل يرتعش وأبوه يفك المنديل، وصرخ وهو يجذبه. ولم تكن الاصابة قاتلة أو ربيع قاتلة. . كانت جرحا صغيرا نصفه في الجبهة ونصفه في الشعر، والدم الذي حوله كثير والبن أكثر. . بن يكفي لصنع ثلاث كنكات من القهوة وتبقى منه بعدها تلقية.

ومع أن شعبان أحس بالجرح يمتد من جبهة ابنه الى قلبه، الا أن وجهه لم يتغير وغيظه كان لا يزال كما هو. وأعاد رباط الجرح وزغر لابنه، وقال وهو يجلد به بلامحه :

- وما ضربتوش ليه يا . ؟

وبكى الواد وهو يقسم بالقرآن الشريف أنه أشبعه ضربا ولكما
وعضا، ولكنه خانه وضربه بزلطة فجرحه .

وبدأت العاصفة . . فهيمة تريد ابلاغ البوليس وعمل محضر
وقتل ابن ابراهيم أفندي ، وان لم يفعل فستأخذ هدموها وعليه أن
يوصلها الى باب الحديد لتركب القطار وتعود الى البلد حيث للولد
اخوان يستطيعون حمايته والانتقام له . وشعبان ساخط على ابنه
المغلوب يهدده بعلاقة نصفها الموت حالما يطيب، علة تصنع منه
رجلا يعرف كيف يذود عن نفسه ويجرح بدلا من أن يأتيه مجروحا .
ولا يترك لابنه فرصة للنجاة من العلة الا بأن يذهب في الحال
ويجرح ابن ابراهيم أفندي جرحا يمتد من أنفه الى قفاه .

وتمضي ساعة .

وتهدأ العاصفة ، ويستعيد الزوج من الشيطان ومن ساعة
الغضب ، ويجد أن الناس للناس والطيب أحسن ، وأنه لا بد أن
يشتكي الولد لأبيه وهو يعرف ابراهيم أفندي رجل جد لن يرضيه ما
فعله ابنه ، فاذا أدبه كان بها والا فهناك ألف طريقة لتأديبه . وترفض
الزوجة هذا الحل بدعوى أنها جرحت هي الأخرى . . جرحتها طويلا
اللسان زوجة(سي) ابراهيم وفضحتها ، ولا بد من سن بسن وعين
بعين والبادي أظلم . ويطمئنهما الزوج ويعددها بأن حقها سيأتيها به
كاملا غير منقوص ، وأن مقامها محفوظ وظفرها عنده بمليون واحدة
كامرة ابراهيم أفندي .

ويظل جو البيت مشحونا ، وشعبان يخلع بنطلون الشغل

وقميصه ويرتدي الجلباب ويريح يديه من نوبة السواقة التي بدأت في الخامسة وانتهت حين تصلب ظهره وتورمت كفاه وزغللت عيناه. ويسأل عما طبخته الزوجة وهيبته ولا يجدها طبخت ولا هببت، ويلعن العيشة التي لا راحة فيها أبداً. . الشغل أومنيوس والبيت عربية كارو، وفي كل عودة لا بد أن يجد مصيبة، وكم مصيبة يتحملها العمر؟ والواحد له عمر واحد.

بعد قليل كان شعبان يمسك ابنه المرتجف المرتعش من يده ويدق باب إبراهيم أفندي.

دق مرة فسكتت الأصوات التي كان يسمعها في الداخل. وعاد يدق فماتت الأصوات، وانطلق حينئذ يدق بلا توقف.

وفتح الباب أخيراً، فتح فجأة. . وفجأة أيضاً وجد الأسطى شعبان نفسه أمام صالة وفي نهايتها كومة بشرية هائلة. كان الوقت وقت غداء. . والعائلة كلها جالسة تتناولوه، والمائدة صغيرة ضيقة لا تتسع لهذا العدد الهائل من أفراد العائلة.

كانت هناك الست شفاعات الزوجة، تخينة ومحنية على المائدة ككيس القطن المثني، وكانت هناك الحاجة تبارك والدة إبراهيم أفندي عجوز جداً وناحلة وشعرها مصبوغ بالحناء ولونه أصفر وأحمر وأبيض. ثم كان هناك ثمانية أطفال بدوا من كثرتهم وتجمعهم اثني عشر أو يزيدون، وكلهم باسم الله ما شاء الله وبلا ضغينة أو حسد أولاد إبراهيم أفندي، وفي الركن وفي مساحة لا تتعدى ورقة البوستة كان

يجلس رجل رفيع رفيع، لونه أصفر باهت ووجناته بارزة كالشرفات، كان هو بلا ريب ابراهيم أفندي عميد العائلة والمسئول عن انتاج هذا العدد الضخم من الكائنات الحية، والمسئول كذلك عن بقائها. وكان الجميع في معركة لا رحمة فيها ولا هوادة، فالطعام قليل والمائدة ضيقة والرغيف مهما كبر لا يحتوي الا على عدد محدود من اللقم، والصراع دائر من أجل البقاء، أو نتش حته، أو الاعتداء على لقمة أو الحصول على غموس. . صراع رهيب شمل العائلة كلها وشمل كذلك قططها. فالعائلة - من العز - تحيا معها أربع قطط لها جيش من الأولاد، والقطط وأولادها لا بد أن تأكل، ولا بد لها من خوض صراع أمر وأدهي لتجد فرجة بين ساقين أو ثقباً بين جسدتين، لينالها من الوجبة على الأقل لحسة أو عظمة.

وكل شيء يدور في صمت شامل، ولا تسمع الا أصوات الملاعق واحتكاكات الأسنان بالأسنان وجمعجة المضغ واللكرات التي يصوبها الأخ الى أخيه والجار الى الجار القطعة.

وما كاد الباب يفتح ويبدو الأسطى شعبان واقفا على عتبة حتى حدث هرج ومرج كثير، وقام ابراهيم أفندي يعزم، وتضايقت الست شفاعات من هذا القادم في وقت الغداء. وأحس الأسطى شعبان بالخجل وتبدلت عبارات مجاملة كثيرة، وحلفت عشرات الأيمانات والأقسام وتزحزحت مقاعد، وماء ولد وصرخت قطعة.

وأخيرا جلس الأسطى على الكنبه وهدأت الأصوات، ثم التأم شمل الكومة البشرية مرة أخرى وعاد السكون الذي لا تقطعه

سوى أصوات الأشدق والأسنان وهي تمضغ اللقم وتمزقها. مضافا إليها أصوات ترحيبات كان يرددها ابراهيم أفندي وفمه ممتلىء بالخبر وعقله ممتلىء بالتخمينات.

وكان واضحاً أن عاصفة ستهب بعد قليل.. وانتهز كل فرصة الهدوء الذي يسبقها وراح يعبىء نفسه ويستعد.

الأسطى شعبان جالس مكسوف يرتب ما سوف يقوله وينتقيه، ويجرب بينه وبين نفسه كيف يقوله. وابراهيم أفندي يدرك أن ولداً من أولاده لا بد هو الجاني وهو السبب في الدم الذي جف على مسدیل ابن شعبان، ولا بد أن امرأته كالعادة تولت علاج الأمر بطريقة الفاسدة، وأخفت عنه الحكاية ككل مرة وتركت له ليواجه المصيبة وحده. ومع هذا كان عليه أن يدفع أول الأمر ببراءة أولاده أجمعين ويتحدث عن طيبتهم، ويأتي بالبراهين على أنهم أولاد حلال مسالمين. فإن أفلتت البراءة كان عليه أن يتصيد الحجج ويقيم المعاذير ويعد آخر الأمر بالعقاب الباتر.

والست شفاعات نسيت تماماً انها لم تترك أباً لهذا الرجل الجالس أمامها الا ولعنته وطوقته بأبشع التهم منذ وقت قليل، واندفعت ترحب به وفي نفس الوقت تعد ما سوف تقوله دفاعاً عن ابنها، ثم ما سوف تقوله دفاعاً عن نفسها أمام زوجها إن هو سألها كيف أخفت عنه ما حدث. ولم تنس بطبيعة الحال أن تحسب حساب الضرورة القصوى وتعد نفسها لخناقة، وتعد لشعبان سرباً طيباً من الشتائم يليق بوداعه.. والأولاد قلوبهم كانت تدق فالجاني لا بد

منهم، وكل منهم فرح أنه ليس الجاني وأنه سيشهد لتوهِ محاكمة رائعة يلذ له حضورها كشاهد رؤية فقط وليس كمتهم .

غير أن أمل الأولاد خاب، فبعد قليل جلجل صوت أبيهم يأمرهم بالانسحاب . . ويأمر زوجته بإزالة بقايا الطعام .

وجلجلة صوت أبيهم وإن كانت لا تحدث الا نادراً ولا تحدث الا في حضرة أغراب، الا انها أحياناً تخيف ويحسن طاعتها . ورفعت بقايا الطعام، ولم يكن قد تبقى سوى الصحون والملاعق فقط، وللإنصاف ولم تستطع أصابع الأطفال ولا حتى أظافر القطط أن تصل إليها .

وكان في نية ابراهيم أفندي أن يججلجل صوته مرة ثالثة ويأمر زوجته بتركه مع الأسطى شعبان على انفراد، لولا أنه شك في احتمال طاعته، فأثر السلامة والاحتفاظ بكيانه سليماً أمام الضيف لا تجرحه كلمة ولا زغرة أو تعليق .

وهكذا، وليبعدها، أمرها بلهجة رقيقة لطيفة لا يقولها الا زوج غارق في سعادة زوجية دائمة أن تعد القهوة، وأصابته نظرة جانبية مدبية كطرف الابرة أفهمته ان ليس لديهم بن .

وحينئذ افتعل ابراهيم أفندي ضحكة ما، وقال للأسطى شعبان وهو يخطه فوق ركبته :

- والا تشرب شاي أحسن؟ . . أنا عارف . . أنت تحب الشاي .
كل الأسطوات يحبوا الشاي . . خليه ثقيل يا أم نعيمة . .

وبينما كان الشاي يعد كانت أم نعيمة لا تتركهما على انفراد أبدا وكأن في الأمر مؤامرة، فهي غادية راثحة تنقل كرسيا من مكان الى مكان، أو تسأل ابراهيم أفندي إن كان يريد شيئا، ويله ان كان قد أراد شيئا.

وأخيرا آن الأوان وقال ابراهيم أفندي :
- خير؟ ..

ولم يقل شعبان حرفا، أشار لابنه وسكت.
وقال ابراهيم أفندي وقد ارتسم أسى أكثر من اللازم على وجهه، وكأنه فوجيء برؤية رأس الولد المجروح :

- خير؟ .. ماله؟ .. مالك يا بابا؟ .. مالك؟ ..

فقال شعبان :

- ابنك عوره.

- ابني مين؟ ..

قالها ابراهيم فندي باستنكار ثم أضاف :

- انت متأكد؟ .. يعني واحد من الأولاد اللي كانوا هنا دول هو

اللي ضربه؟ ..

- أيوه ..

- يا ولدا! .. يا ولد انت وهوه! ..

قالها ابراهيم أفندي في شموخ وشهامة .

وجاء الأولاد يتدارون في بعضهم البعض ، وكش فيهم الأب :

- أقف عدل يا ولد . . أقف عدل . . شيل ايدك من على كتف أخوك يا قليل الأدب .

ووقف الأولاد وجاءت وقفتهم أقرب ما تكون الى الطابور ، كانوا ثمانية وكانوا يصنعون مع الأرض مثلثا أصغرهم طوله أشبار وأكبرهم أطول من الوالد نفسه بقليل .

وحدق فيهم ابراهيم أفندي وهو يتفحص ليحرز من الجاني ، ويحس بنوع من الثقة لأنه رئيس هذا الطابور كله يستطيع أن يحركه كيف يشاء . وقال لابن شعبان :

- مين فيهم اللي ضربك يا بابا؟

وأشار الولد الى فؤاد الذي يقف في الوسط وقال :

- ده . .

وهنا ضاع زمام الموقف وهاج كل شيء ، وارتفع صوت شعبان يحكي ويعنف وقد ذهب عنه خجله وحرجه ، وبطالب أن يضرب الجاني علقة . . الآن الآن . . أمام عينيه والا كان ما كان .

ورد عليه ابراهيم أفندي بصوت لا يقل عنه علوا ، واشتركت شفاعات بلسانها ويديها ورموشها وعينيها . وتناثر الأولاد في الصالة بعضهم يردد كلمات الأب ، وبعضهم يعزز حركات الأم وبعضهم

يقلد كلمات الأسطى شعبان ويسخر من كلماته، وفي تلك الأثناء هاجت القطط وانطلقت تموء دون أن يزعجها أحد، وسقطت أشياء في الحمام، وقرقعت قباقيب على البلاط، ورفع صاحب القهوة المجاورة مذياعه على الآخر، وأذن المغرب، وبدأت صيحات اللبن الزبادي.

وآب كل شيء فجأة الى هدوء حين ارتفع صوت إبراهيم أفندي يقول:

- ولزومه ايه كتر الكلام؟ .. نحقق .. واللي عليه الحق ينضرب بالجزمة ..

وهكذا بدأ التحقيق.

وبدا الخلاف، فمن من الولدين يحكي أولاً؟ ..

واستقر الرأي أخيراً على أن يبدأوا برواية المجني عليه المجروح.

وبدا ابن شعبان يتكلم، وما أن فتح فمه حتى صمت الجميع وترقبوا وعم السكون، وحينئذ تلجلج ولم يستطع إخراج الكلمات الا بعد أن نظر الى أبيه .. وكش فيه أبوه فانطلق يقول:

- كنا .. كنا بنلعب. وبعدين قسمنا قسمنا نفسينا. أنا كنت بدا بدافع ودهه (وأشسار الى فؤاد دون أن ينظر اليه) ودهه كان الأسطول .. جه جه يزقني ما قدرش عليّ.

واندفع فؤاد الرفيع يقاطعه:

- أنا ما قدرتش عليك؟ .. مش احنا قايلين مفيش طوب ..
ضربتني بالطوبة ليه؟ ..

وهب فيه أبوه يقول اخرس .. فخرس فؤاد. وخرس ابن شعبان
أيضاً وعم سكون.

وتنحني شعبان وقال لابنه:

- يا ولد احكي كويس. كنتم بتلعبوا ايه؟

ورفع ابراهيم أفندي جذعه ورأسه وذراعيه محتجا على سؤال
الأسطى شعبان، طالبا أن يترك الولد ليروي ما حدث دون أي تدخل
أو مساعدة.

وقال شعبان وأمره الى الله:

- يا خوانا دانا بس عايز تعرفوا ايه الموضوع ..

ومضى الولد يقول:

- جه يزقني ما قدرش عليّ .. فراح جايب زلطة وحدفني
بيها حت ف .. ف ..

وبدا الولد ينهني لولا أن هب فيه أبوه:

- أكنتم يا بن الـ .. انت بنت؟ اكنتم أوعى تنفس.

وفعلت كلمات الأب فعل السحر.

ورفع الابن وجهه لأول مرة، وحدق في الموجودين بجرأة
وأشار الى فؤاد وقال:

- علشان ما .. ما قدرتش علي .. رحت جبت زلطة يا جبان .
 وهب فيه الجميع أن يخرس فلم يخرس . ومضى كالوحش
 الصغير يههب ويعوي :

- عاملي أسطول؟ .. والله لما تكون انت مليون أسطول ..
 علشان ما قدرتش علي؟ حد كان قالك .. قالك العب .. حد .. حد
 قالك اعمل أسطول؟ .. لما أنت جبان .

وهنا جاءت زغدة (كده وكده) من أبيه فسكت وعم السكون .
 وكان لا بد أن يعم السكون فإن أحدا لم يكن قد فهم شيئا، ثم إن
 ما تبادل الولدان زاد الأمر تعقيداً، وأصبح هم كل والد أن يعرف كنه
 تلك الخناقة بعد أن كان همه أن يعد نفسه للدفاع عن ابنه .

وكان واضحاً أنهما لن يستطيعا أن يستخلصا السبب من
 المتخاصمين والمجني عليه متحفز والجاني ينكر، والحقيقة ضائعة
 بين التحفز والإنكار .

وكان لا بد من التدخل للعشور على الحقيقة . وإبراهيم أفندي
 الذي لم يرض بتدخل شعبان بدأ هو الذي يتدخل ويسأل على اعتبار
 أنه والد الجاني فلن يحابي المجني عليه .

وأطال إبراهيم أفندي رقبته ومد رأسه وقال كأي وكيل نيابة
 مدرب، موجه السؤال الى ابن شعبان :
 - اسمع يا شاطر؛ قل لي كنتو بتلعبو ايه؟

فأجاب ابنه بسرعة :

- كنا بنلعب لعبة الكنال .

وأسكت ابنه بلعنة وعاد يوجه السؤال للمجنني عليه، فقال
الأخير:

- كنا كنا بنلعب . . لعبة الكنال . .

وهز ابراهيم أفندي رأسه وعاد يسأل:

- لعبة الكنال دي ايه . . كوره؟!

فأجاب الولد:

- لا لا . لعبة الكنال . . قسمنا . . قسمنا نفسينا . .

وهز ابراهيم أفندي رأسه وعاد يسأل:

- يا بني ايه لعبة الكنال دي؟

فقال الولد بفروغ بال الصغير:

- مانا مانا بقولك آه . . قسمنا قسمنا نفسينا . . احنا احنا

الجيش المصري وهم أسطول الانجليز . . وحطينا حطينا خط كده
وقلنا قلنا ده الكنال .

وفي نزق الأطفال، ترك الولد مكانه بجوار أبيه وقد ذهب عنه
تحفظه وخوفه تماما، ومضى الى وسط الصالة يمثل:

- حطينا خط كده . . يعني يعني الكنال . . والجيش المصري

يقف هنا . . وأسطول الانجليز يجي يجي من هنا . . واذا عدوا الخط
يبقى اتغلبنا وياخدوا الكنال .

وهنا غمز ابراهيم أفندي لشعبان عله يضحك، ولكن شعبان لم يضحك، كان وجهه لا يزال جادا ولا يزال يريد أن يطمئن ان ابنه كان محقوقا ليضربه أو صاحب حق ليشهد ضرب خصمه. أما الست شفاعات فكانت ساكتة ترقب الولد اللمض في اشمئناط واحتقار، والأولاد كانوا مشغولين بالتفكير في لعبة الكنال، يقلبون الأمر على وجوهه ليروا الى أي الفرق ينضمون اذا لعبوها.

وأحسن ابن شعبان بالجوف فيه هدوء مريب فسكت، ولكن أباه استحثه ورغده وقال:

- هيه . . قول .

فأجاب الولد بفرحة وكأنه أخذ اذنا باللعب في الحارة الى ساعة متأخرة:

- أنا كنت في الجيش المصري . . ع اليمه دي . . فأم سحلول جه يهجم عليّ . .

وقاطعه ابراهيم أفندي بلهجته الممدودة:

- أم سحلول مين؟

فقال الولد على الفور:

- ده . . فؤاد . .

ثم استدرك:

- أصل احنا مسمينه أم سحلول .

ونظر ابراهيم أفندي الى ابنه شذرا واستدار الى ابن شعبان
وقال :

- اسمه فؤاد . . أم سحلول ايه دي ؟ . .

- وعاد ابن شعبان يحكي :

- وبعدين اذا اذا احد . .

والتفت ابراهيم أفندي فجأة الى ابنه وهو يغلي :

- بقى كده يا وله يسموك أم سحلول ؟ . . اتفرجي على ابنك يا
ست هانم . . اتفرجي يا ست أم سح . . .

وكاد يقولها ولكنه أنقذ لسانه في آخر لحظة والتفت لابن شعبان
وقال :

- كمل . . كمل يا خويا . . كمل يا أم أربعة وأربعين انت
راخر . .

وانطلق الولد :

- وبعدين اذا واحد من الأسطول قدر يعدي الخط تبقى فرقنا
اتغلبت ، أنا كنت مع بندق وخشبة وحسام ، وخشبة وحسام اتغلبوا ،
فأتلمت فرقة أم سحلول كلها على . .

وقاطعه ابراهيم أفندي :

- قلنا ميت مره فؤاد . . قلنا فؤاد . . ده دي ؟ . .

وتكلم شعبان :

- معلى يا إبراهيم أفندي .. عيال .. خليه براحتة علشان
يحكي كويس ..

وزار إبراهيم أفندي بصوت منخفض وعينين جاحظتين :

- حكى يحكي ، انما أم سحلول ايه ؟ .. قلنا له اسمه فؤاد ..
هي قصة .. ده دي ؟

وهنا أشار فؤاد الرفيع إشارة خفية لابن شعبان معناها :
«طيب .. والله لأوريك» ..

ولكن ابن شعبان لم يتوقف ومضى يقول :

- فضلت أنا وده .. هوه اكمنه أطول مني حب يديني هدر ..
قمت أنا شكيتة مقص راح نازل على سنانة ، فالولاد ضحكوا عليه
وفضلوا يضحكوا ويقولوا : ايدن أه .. ايدن أه .. العبيط أه ..
العبيط أه .. فهو اتغاظ ومسك زلطة وراح خابطني في رأسي .

واندفع فؤاد يقول :

- أبدا والله .. انت ستين كداب في أصل وشك .. والله يا بابا
ما ضربته .. هو اللي وقع .. أنا مالي ؟ .. أنا ما ضربتوش احنا اتفقنا
ان اذا غلبنا منهم اتنين يسلموا .. هو ما رضيش يسلم وقعد يزق
فينا .. واحنا نزق فيه فراح واقع على الأرض اتعور .

وكان ابراهيم أفندي يحاول اسكات ابنه طوال الوقت، ومع هذا فقد تغاضى عنه حتى عثر في كلامه على حجة، وحينئذ أسكته ومط رقبته وسأل ابن شعبان:

- انتواتفتوا صحيح ان اذا اتنين اتغلبوا تسلموا . . ؟

وانتظر الجميع الجواب بفارغ الصبر. كان كل من بالحجرة قد نسي من الجاني ومن المجني عليه واستحوزت اللعبة على تفكيره. الأولاد كفوا عن الدوشة، وأم نعيمة يدها في خصرها وأذنها متجهة الى مصدر الصوت والمتاعب، وشعبان مائل الى الأمام يراقب ابنه في حماس، والجدة كفت عن المواء، والقطط هي الأخرى كفت عن الأنين واختفت بين طيات ملابس الجالسين.

وقال ابراهيم أفندي وهو ماض كوكيل النيابة في دوره يستدرج الولد:

- انتواتفتوا صحيح يا حبيبي؟ . .

وتلجلج ابن شعبان ونظر الى ابيه يستشف ما وراء نظراته ثم قال:

- احنا احنا أيوه اتفقنا . . بس بس . .

وتنفس ابراهيم أفندي لأول مرة بارتياح وعوج رأسه وقال وهو يكيل السؤال القاضي:

- طيب . . ليه بقى سيادتك مسلمتش زي ما اتفتتوا؟ . .

وواجهه ابن شعبان في دهشة واستغراب وقال:

- اسلم ازاي؟!

فعوج ابراهيم أفندي رأسه الى الناحية الأخرى وقال:

- زي ما اتفقتوا . . ليه بقى يا سيدي ما سلمتش؟

فقال الولد على الفور:

- ما هو . . ما هو إذا سلمت يبقى اتغلبنا .

وأغلق إبراهيم أفندي عينه اليمنى وقال:

- تتغلبوا تتغلبوا .

وازداد الاستنكار في وجه الولد وقال في دهشة:

- اذا اتغلبنا يكسبوا هم .

وأجاب ابراهيم أفندي وهو يغلق العين الأخرى:

- يكسبوا يكسبوا . . ليه ما سلمتش؟

وقال الولد بفروغ بال:

- مهم كانوا أخذوا الكنال . .

فقال ابراهيم أفندي وهو يمط شفتيه:

- ياخدوه يا خدوه . .

واندفع الولد بغضب حقيقي يقول:

- يا خدوه ازاي؟ . . هي . . هي لعبة . . هـ . . هي لعبة؟!

وكذلك اندفع أبوه يقول:

- وده اسمه كلام يا أبو فؤاد؟

وكادت تحدث بواذر ضجة، لولا أن ابراهيم أفندي صرخ:

- هوس.. هوس.. يا اخوانا ايه اللي جرى؟.. دي لعبة

بيلعبوها. قول يا بني ما سلمتش ليه؟.. قول..

فقال الولد:

- أسلم ازاي؟

وقال أبوه:

- يسلم ازاي؟

وقالت أم نعيمة:

- زي الناس يا دلعي..

واندفع فؤاد النحيل يقول:

- شفت يا بابا؟.. هو اللي قلبها جد.. احنا كنا بنلعب

.. هو اللي قلبها جد.. قلنا له سلم قام شتمنا وقعد يضرب

فينا عشان منعديش الخط.. والله هو اللي وقعني وقعد يضرب في..

وعضني.. ثلاث عضات.. أهم.. دا كان.. زي المسروع.. دا

مكانش بيلعب.. دا قلبها جد.. وكل.. ده.. عشان مش عايز

يتغلب.. وأنا مالي؟.. هو اللي وقع.. ولما وقع اتعور.. أنا

مالي؟.. والله ما لمستته.. دا يدوبي قربت عليه نزل في ضرب.

وانخرط الولد في البكاء.

وهنا استعاد ابراهيم أفندي الشخطة التي شخطها شعبان في
ابنه وشخط شخطة أعلى منها وقال:

- اخرس.. أنت بتعيط زي النسوان؟.. عمى في عينك.

وصرخت فيه زوجه:

- جرى ايه يا ابراهيم سرعت الواد.. هو قد الشخطة دي؟..
وايه حكاية النسوان دي رخره.. ما تقعد معوج يا ابراهيم وتتكلم
عدل.. اتكلم عدل يا ابراهيم.

وقرأ ابراهيم أفندي في الجملة الأخيرة انذارا خفيا، وفعل
الانذار فعله في الحال.

وهكذا ضاع زمام الموقف واختلطت الأصوات.. صوت
الأسطى شعبان تخين وتصاحبه حشرجة كحشرجة الكلاكس حين
يعلق، وصوت ابراهيم أفندي رفيع أخف كأنما يصدر عن طاقة
واحدة من طاقتي أنفه، وصوت أم نعيمة حياني نواعمي طويل كحبال
الكتان، وصوت الجدة أم ابراهيم أفندي كصوت ابنها تماما وكأنها
جد. وكلمات شعبان فيها احتجاج صارخ، وكلمات ابراهيم فيها
دعوة للسلام والمحبة، وما يصحش يعملها الصغار ويقع فيها الكبار،
وكلمات شفاعات عزف منفرد لزمارة كمساوي ترام، وكلمات تقال
وكلمات لا تقال، ولم يسلم الأمر حتما من بضع دعوات خرجت من
فم الجدة واستقرت على رأس العدو، أي عدو..

وآب كل شيء الى هدوء حين قال الأسطى شعبان:

- زاي بعضه . . احنا مالنا بركة الا بعض . . نصطلح نصطلح .

وقبل الجاني رأس المجني عليه . . وتبودلت بفسع نكات
تناسب المقام . . وتفضلت الست أم نعيمة وضحكت على نكتة .
وتفرق الأولاد وقد انتهت الرواية، وجاء الشاي وشرب الأسطى شعبان
وشرب ابراهيم أفندي على حس الضيف . وتكلم الرجلان في
السياسة وقال ابراهيم أفندي أن الله معنا وسينصرنا على القوم
الكافرين . . وقال شعبان عن الانجليز دول عظمهم دايب من شرب
الخمرة . . يدوبك تزق الواحد يقع .

وأخيرا آن الآوان وأخذت الجلسة حقها واستأذن شعبان، وعزم
ابراهيم أفندي عليه بالعشاء، عزومة مراكية، ولكن الأسطى أصر
ومضى آخذاً ابنه من يده .

وقبل أن يهبط شعبان السلالم سمع أصواتا تأتيه من الداخل،
وتلكاً قليلاً فعرف صوت ابراهيم أفندي الأخنف وهو يقول:

- أحرم يا بابا .

- تحرم يا كلب تلعب مع العيال دول؟

وعاد ابراهيم أفندي يقول:-

وسمع شعبان صرخة مبالغاً فيها ثم صوت الولد وهو يقول:

- تحرم تلعب لعبة الكنال ومش عارف ايه؟

وصرخ الولد وقال:

- أحرم يا بابا .

- تحرم يعملوك أم سحلول يا خايب؟

- أحرم والنبي ..

- تحرم تعمللي أسطول وايدن وكلام فارغ من ده؟

- أحرم يا بابا أحرم .. والنبي حرمت ..

ولعلع صوت أم نعيمة :

- خلاص حرم يا ابراهيم خلاص .. "ما عدشي ح يعملها ..

قطيعة تقطع ايدل وشورته واللي جابوه .. قول تبت يا واد .. قول تبت ..

* * *

وقبل أن يضع شعبان قدمه على أول درجة من درجات السلم، التفت الى ابنه وملس على رأسه وعلى المنديل الذي يخفي الجرح وقال:

- وله . أوعى تكون سلمت في الآخر يا واد ..

ونظر الولد الى وجه أبيه المرتفع، وأمسك يده الضخمة بكليتا يديه، ثم ألصقها بوجهه الصغير وضمها اليه وتعلق بها، وابتسم ولم يجب ..

ابو الهول

كنا نعزي في الحاج سعد، والماتم حابك اذ كان الوقت بعد
العشاء حيث يكثر المعزون. كانت الخيمة على قد الحال فيها من
الثقوب أضعاف ما فيها من قماش، والكلوبات نورها يعاني شحوب
الأنيميا الحادة، ومع هذا كان يبدو في الظلام الخرافي المطبق على
قريتنا ساطعا براقا يعشي جموع الفلاحين القادمين يعزون والذين لم
تعود عيونهم أبدا الضوء في الليل، فما بالك بنور الكلوبات؟ ولهذا
كانوا يتوهون في الخيمة ولا يتعرفون على الناس الا بصعوبة.

وكان الأعيان يحتلون - كالعادة - مقاعد الصدارة ذات القطيفة
الباهتة المتآكلة، والذهب الذي تحول الى جرب، والكسور
والرضوض التي أصابت الأذرع والأرجل على مر الزمان..

وكنت أيامها عميد المتعلمين في بلدتنا اذ كنت طالب طب،
وقد أجمع الناس اجماعا رهيبا على تلقيبي بالدكتور، وتبناي أهل
بلدنا واعتبروني ثروة قومية يفاخرون بها البلاد الأخرى. وتقول نساء
قريتنا لصاحباتهن في الأسواق:

- يا بت اختشي داحنا حدانا دكاتره..

وأمر على الأولاد وهم يلعبون فيكفون عما هم فيه من لعب
ويشير إليّ أحدهم قائلا للآخرين :

- والنبي ده دكتور حق حقاني يا ولاد.

وإذا مررت على الكبار تترى الدعوات خلفي ممن أعرفهم
وممن لا أعرفهم ، تحرسني من العيون وتخليني لأبي وتنجح لي
المقاصد.

وأصبح من حقي وواجبي اذن وقد رفعتني الناس الى مصاف
الأعيان أن أجلس بينهم . ومع هذا كنت أفضل ويفضل معي بقية
المتعلمين أن نجلس مع الغالبية العظمى من أهل بلدنا، الذين كان
يقول عنهم الحاج سعد نفسه - عليه رحمة الله - : «ربنا سبحانه
وتعالى خلق الناس اللي بتفهم من تراب الجنة الناعم، ويعدين
فضلت شوية نخالة خشنة احتار يعمل فيها ايه، فراح راميهما وقال
كوني عبادي الفلاحين، فكانت».

كنا نفضل الجلوس الى هؤلاء حيث لا نتكلف ما لا نطبق من
التأدب واصطناع الرجولة، وحيث نتحدث كما نشاء بلا ضابط أو
رابط أو تشكك، وحيث نجد من يتقبلون كلامنا وكأنه آيات
منزلات ..

وفي مأتم الحاج سعد أيضا جلست في الركن القريب من
الباب ومعى بعض طلبة الجامعة وعدد لا يحصى من «النخالة»،
وسرعان ما تضخمت الجماعة بانضمام بعض الذين يتمسحون

بالمتعلمين وعلى رأس هؤلاء أبو عبيد التومرجي في مستشفى حميات المركز، والذي كان يفضل أن تتواجد «الهيئة الطبية» في مكان واحد، فقد كان هو الآخر يزاول الطب يكشف ويشخص ويعطي الحقن، وله بالطو أبيض نظيف وجلابية «دبلان» وطربوش، والحق أنه كان يبدو بملابسه تلك أوجه منا جميعا.

وكان آخر القادمين الى مجلسنا عبد الله المزين، والرجل كان يقوم أحيانا بعمل حلاق الصلحة ويبدو أنه هو الآخر كان يعتبر نفسه يمت بصلة ما إلى الهيئة، فكان إذا رآنا جالسين أعطى صبيه شنطة الحلاقة وأجلسه بها في مكان بعيد وكأنه يتخلص من شخصيته كحلاق، ثم يهل علينا قائلا للجميع:

- السلام عليكم!

ويلتفت إليّ بسلام خاص قائلا:

- نورتنا يا دكتور.

وكان ينطقها «دكتور» ليؤكد لي وللسامعين أنه رجل فاهم، وليبدأ بها شخصيته كعضو ملحق بالهيئة الطبية الموقرة.

كنا جالسين في صمت نستمع الى الشيخ مصطفى مرقى بلدنا الذي كان قد تسلم دكة الفقهاء، وتسلمنا بعد العشاء مباشرة يصب علينا جام صوته الغليظ القبيح ولا يريد أن يختم أو ينتهي. وكلما تهدج صوته ظننا أن الفرج قريب وأنه سوف يسكت، ولكن يخيب ظننا إذ ما أسرع ما كان يمتد رقبتة وكأنه يريد انتزاعها من جسده،

ويكشر جدا ولا ندري لماذا يكشر، ويسد أذنه اليمنى ويخفي عينيه ببقية أصابعه ويحزق وتمتلىء رقبته الطويلة الرفيعة بالعروق وبالهواء، وتتفخ حتى لنخاف عليها وعلينا من الانفجار، ثم ينصع الشيخ مصطفى، وتتطاير شظايا صوته مخترقة فضاء الليل الواسع ترج قريتنا رجا، ويصحو لها نائمون في بلاد أخرى.

وكان الوحيد المباح له الحركة في المأتم هو شيخ الخفراء وقد شنت البندقية في كتفه وراح ينظر الى الناس كمن يقول: نحن هنا. ينظر اليهم ويتمشى في الخيمة قليلا، ثم يسرع الى الخارج يفاجئ الأولاد الذين تجمعوا يتفرجون على المأتم والكلوبات ونقوش الخيمة الغريبة الباهتة، وينهال عليهم ضربا بخيزرائته.

وجاء الفرج وقال الشيخ مصطفى ونحن غير مصدقين: صدق الله العظيم.

وانهال عليه الناس من كل صوب:

- تقبل الله يا أستاذ.. الله يفتح عليك.. حرما.. الله يفتح عليك.. حرما.. الله يعمر بيتك.

وكانت الكلمات تخرج من الأفواه حارة لافحة، آخر ما تصلح له أن تكون دعوات..

وامتلأت الخيمة بعدها بهممة الجماعات المتقاربة.. وبدأنا

نتكلم نحن الآخرون ونال الشيخ مصطفى من ألسنتنا الشيء الكثير. ثم بدأنا كالعادة نخوض في سير الأعيان، وانتهينا أخيرا الى ذكرياتنا عن القاهرة. كنا نتكلم نحن فقط وكان بلدياتنا الفلاحون ساكتين يسمعوننا ويضحكون، وينظرون إلينا ويتأملون كلامنا وكيف ننطقه، ويتحسسون بأعينهم جلايبنا «الزفير» و «البفتة»، ويتفرجون على طربوش أبو عبيد التمرجي وعلى ساعة يدي ويريقها كلما عكست ضوء الكلويات ولا يتكلمون. . وهكذا كان دأبهم دائما اذا جلسوا معنا، نرى في وجوههم السمراء المعفرة اقتناعا كاملا بما نقول، وفي عيونهم اعجابا مطلقا بنا، وفي تأييدهم لنا حماسا منقطع النظير. . وكان يهيمن عليهم دائما وجوم لعله خوف منا، ولعله هوة يحسون أنها تفصل بيننا وبينهم، فكان الواحد منهم لا يخاطب الواحد منا، وانما اذا أعجبه كلام قيل يميل على جاره ويهمس له معلقا أو بلكزه. أما اذا بلغ الاعجاب حد الاعجاز فحيث شد تتصاعد منهم التعليقات رغما عنهم. . كلها متشابهة، وكلها في آن متقارب وكأنما تصدر عن جسد حي واحد خشن كبير.

وحينما أوجد ويوجد أبو عبيد التمرجي، كان ينتهز أول فرصة تسنح له ويخطب سؤالا ما. . ولا بد أن يكون السؤال في الطب. كان يزاول العلاج ويهمه أن يثبت للفلاحين وللمتعلمين أيضا أنه عالم كبير يناقش «الدكتور» مناقشة الند للند. وكان اذا تحدث معي أو سألني لا يفعل ذلك بلغة بلدنا المحلية وانما بلغة البندر، والا فما الفرق بينه وبين الفلاحين؟. . ولا يسأل السؤال بطريقة عادية

وانما له أسلوب مؤدب في أدبه برود وتلامة، نفس أسلوبه الذي يعرض به «خدماته» على الناس ويطلب بأتعابه وفوقها «شوية» لبن أو أكلة بامية من بامية الزبائن الحلوة. . ودائما بامية الزبائن حلوة.

وكانت اسئلته تزعجني جدا، فأياها كنت لا أزال في اعدادي طب اشرح الضفادع وأدرس السيدان، ولا أعلم عن الأدوية والأمراض الا أنني «دكتور». وكان هو من كثرة عمله في المستشفيات قد حفظ كام اسم مرض وكام اسم دواء. وليلتها استطرد أبو عبيد يتحدث عن مرض الحاج سعد وكيف أخذه للدكتور حنا طبيب المركز وفشل علاجه، ثم وصف له هو حقن ستروميسين وأقراص سلفات يازين ٥x٣x٣ «هكذا كان يقول»، وم، قلوي، ومنعه عن الطعام منعا باتا، ولكن المرحوم هفت نفسه الى الفسيخ يوم السوق والتهم وحده رطلا . . فحم القضاء . .

وغمغم الجمع الذي حولنا، فهنا وفي مجال القسمة والأعمار يستطيعون الكلام:

- بتيجي على أهون سبب . .

- اجله كده . .

- ما حدش بيفوت يوم من عمره . .

- حكمته . .

واذا بدأ أبو عبيد . . فمحال ينتهي . . ولهذا أنشأ يحدثنا عما جرى بعد الوفاة . . فهو الذي استخرج تصريح الدفن رغم عصلجة

الطبيب. . واستخرجه بعد ميعاد العمل الرسمي . وكان واضحا أن لولا شطارته لبقى المرحوم بلا دفن الى اليوم التالي .

ولست أذكر كيف استطعنا «استخراج» الحديث من أبو عبيد وإدارته بيننا نحن «المتعلمين» ، ولكن أذكر أن المناقشة دارت حول الجثة وعن هل من الممكن أن تبقى أياما بلا دفن . وبعد أن هدأت حدة النقاش سألني أبو عبيد والاهتمام الشديد ظاهر على وجهه :

- الا قوللي يا دكتور؟

وكان يقول لي «دكتور» ليدو ثمة فارق بينه وبين حلاق الصحة من ناحية، وبينه وبين الفلاحين الذين يقولون «دكتور» من ناحية أخرى . .

واستدرت اليه أستعد لسؤاله البايخ ، فقال :

- هو التخشب الرمي بيظهر بعد الوفاة بعد ايه؟

وصمت الموجودون جميعا ، المتعلمين وغير المتعلمين ، يحملقون مذهولين في كلمة «التخشب الرمي» وهي لا تزال ترن في الجو وتحوم حولنا ، حتى حلاق الصحة أذهلته الكلمة فراح ينظر الى أبو عبيد في دهشة وحسد وكأنما يستكثر عليه معرفة كلمة كتلك وما لبث أنظار الجميع أن تحولت إليّ تستنجد بي وتتنظر الشرح . وكنت من لحظة أن سمعت الكلمة قد أصابني حيرة بالغة فما كنت أعرف ما تعنيه . ولما وجدت التساؤل حاصرني ابتسمت ابتسامة صفراء وسألته السؤال الذي يكسب به العاجز الوقت :

- فيه؟

فقال وكأنه يطرح قضية عامة للمناقشة:

- أصلي اختلفت النهارده مع الدكتور صبحي الحكيمباشي بتاعنا.. أنا أقول نص ساعة وهو يقولي يا أحمد ساعتين بس..

فإيه رأيك يا دكتور؟

وتصنعت لهجة العلماء وقلت:

- لا.. انت غلطان وهو غلطان.. هي تيجي ساعة كده.. ونظرت الى وجوه الجالسين فرأيتهم يسمعون اجابتي ويتبادلون النظرات، والكلمة لا تزال ترن في آذانهم ولا يفهمون. وصمتنا ثوان قليلة رحت اتطلع اثناءها الى أبو عبيد لأرى ان كان قد اقتنع أم لا يزال به شك. وكان هو خافضاً بصره الى الأرض يحدق في قبضته بأدب جم. وكنت أعرف حركته اللعينة تلك وأعرف أنه يصطنعها كلما ارتبكت أنا حتى لا يخرجني، اذ لا يصح وهو «التمرجي» أن يخرج «الدكتور»..

غير أنني فوجئت بصالح - الله يعافيه بالعافية - يزر عينيه ويسألني:

- الا يا دكتور ايه خشب الرمه ده؟..

وصالح هذا كان فلاحاً ولكنه لا يزرع الأرض لحسابه وانما يشغل عند أحد المستأجرين، أظنه واحداً من عيلة أبوشندي،

يشتغل مقابل طعامه وكسوته وكذا كيلة في العام . وكان لونه لا هو
 أسمر ولا أصفر، لون رمادي كلون التراب . . وكان طويلًا هائلًا
 يخيف الناس مرآه حتى سموه أبو الهول . وعمره ما رأيته مبتسما ولا
 رأيت عينيه مفتوحتين وكأنما كان يرى برموشه ، وكانوا يقولون إن
 قلبه ميت ، وأنه لا يخاف ولا يزعل ولا يفرح ، وإنه أقوى واحد في
 بلدنا لولا أنه لا يحب اظهار قوته تواضعا ، ومن خشية الله . وكان
 كلامه بطيئا تحس معه أنه ينتزعه من نفسه انتزاعا ، وكان دؤوبا على
 جلسة المتعلمين ولكنه لا يتكلم فيها أبدا . وكان الناس يعرفون عنه
 هذا السكوت ولا يحاولون استفزازه ، مخافة أن يثور مرة فيقتل من
 أمامه . . ومع هذا لا يذكر الذاكرون في بلدتنا - على كثرة ما فيها من
 مؤرخين وذاكرين - أنه ثار مرة ولا اشتكى أو توجع .

وكادت جماعتنا تضحك للسؤال المفاجيء لولا المأتم ،
 والظاهر أن ابو الهول كان قد عبر بسؤاله عما يدور في الخواطر
 جميعا ، فما لبثت الوجوه أن تطلعت إليّ ، كلها متسائلة جادة ، ما عدا
 وجه أبو عبيد الذي راح يتطلع ناحيتي ويبتسم ، ويقول بابتسامته :

- أقول أنا؟

وعبست أطلب منه السكوت وقلت على البديهة :

- أصل يا صالح جسم الانسان ده عجيب قوي . .

وسرحت أحدثهم حديثا عاما عن الجسد ، وكيف يجري
 الدم ، ويدق القلب . .

وسكت، لأرى ان كانوا قد نسوا أو اقتنعوا. . ولكن صالح زر عينيه مرة أخرى، وعاد يسألني :

- آمال رمة ايه اللي يقول عليها لفندي؟

وعاد(لفندي) أبو عبيد يقول بابتسامته اللامعة الباردة: تحرم تعمل دكتور؟ ولما وجدني سكت، والسكوت علامة الرضا. اندفع يقول:

- بعد اذنك يا دكتور. . أصل بني آدم منا يا اخواننا جسمه من جوه مليان جير وحديد وزرنيخ وسليمانى وماركورو كرون. . وطول ما الواحد منا حي الحاجات دي بتبقى سايحة في الجسم فلما بينقضي الأجل ويتوفاه الله بتروح عاقدة على بعضها زي ما بيعقد جالوص الطين في وش البعدا. . تقوم تيجي تحسس على جسم الميت من دول تلاقيه كنه لوح لطرانه تمام.

وسكت أبو عبيد عن الكلام. ويبدو أن ما قاله كان عجيبا غريبا لا يستطيع أحد تصديقه دون شهادة مني. . وعادت العيون تنظر إليّ وتطلب الشهادة، ولم أجد لديّ شيئا يدحض علم أبو عبيد فهزرت رأسي موافقا، وحينئذ فقط تصاعدت التعليقات :

- يا خبر!

- أترن بني آدم رمة يا ولاد وما هوش داري .

- عجائب والله .

- ما تموت يا واد يا صالح خيلنا نعرش بيك الزريبة .

- عشان تحمدوا ربنا على لقمة العيش ونفس الهوا يا عالم بذر
كتان..

وأصبح أبو عبيد نجم الحلقة بلا منازع.. وأخذت العيون
تلتف حوله وترعاه في تبجيل وكأنه هو الذي يستطيع اذا شاء أن يحيل
الواحد منهم الى قطعة من خشب الرمة..

ولم أحتمل هذا، فسرعان ما وجدت نفسي أندفع في الحديث
عن الوفاة والجثث حديث العارف الخبير. وأخذت أروي لهم النوادر
والحكايات عما يحدث في مشرحة كلية الطب وكيف أننا نقضي طيلة
النهار والمشارط في أيدينا نقطع الأجساد ونبقر البطون، مع أنني لم
أكن قد دخلت المشرحة ولا رأيتهما في حياتي..

واستوليت على انتباهاتهم كلها. وغاب عن ذاكرتهم أبو عبيد
برمته، والمأتم وكل شيء.

وفي ذلك الوقت صعد الى أريكة الفقهاء رجل ضخم يرتدي
الجبة والتفطان. وتبينت فيه الشيخ عبد الحميد واعظ المركز،
وكان الرجل - والحق يقال - نشيطا في اداء وظيفته حتى لهجت
الأسن بذكره. كان لا يترك مأتما في قرية الا ويذهب اليه ويعزي
فيه، ليس هذا فقط، بل إنه ما يكاد يجلس قليلا وتخلو دكة الفقهاء
حتى يمضي اليها في بطء وقور، ويرتل بصوت هادىء: (بسم الله
الرحمن الرحيم) ويعم الصمت المكان وتشرئب الأعناق تتابع درس
الشيخ وهو يرويه بصوت حلو، ينغمه ويطيل في نبراته الحلقية،
ويضم الصاد، وتخرج الرائ لها زغرودة، وتحس اذا ما سمعت

الكلمات المترادفة الممدودة وهي تنهادى من حنجرتة - بينما وجهه مكتنز أحمر، وشاربه مخطط أسود، وعمامته ناصعة البياض - نحس أنه لا بد قد تعشى بخروف دسم قبل أن يلقي الدرس، وأن كلماته تخرج مطمئنة شبعانة لا تشكو قلقا ولا تعباً، وإن لا أولاد له ولا زوجة أو مشاكل وأنه - بالتأكيد - له الجنة .

صعد الشيخ وأخذ يلقي الدرس . . وكان مفروضاً أن أسكت مع الساكيتين وأسمعه، ولكني كنت قد طرقت بحديثي باباً لا يستطيع أبو عبيد أن ينافسني فيه . . فالحقن والأدوية والأسماء الغريبة له فيها . . أما الجثث . . فسيرتها لا تأتي الا على السنة الدكاترة وحدهم . . ولهذا مضيت أتحدث . . وانقسم المآثم . . الغالبية تسمع الواعظ . والأقلية تسمعي، وأنا أوزع انتباهي بين كلامي وكلام الواعظ . . كان الرجل قد وصل في حديثه الى العذاب الذي ينتظر العصاة في الآخرة . . وكان قد استولى على الألباب جميعاً . . أقصد ألباب «النخالة» . . فالأعيان كنت أسمعهم يتهايمسون ويتشاءمون وينظرون في ساعاتهم ويختلفون على أيها أضبط . . أما أصحاب الأجساد الضامرة البالية فكانوا مسمرين في أماكنهم يسمعون، ووجوههم صفراء ذابلة كأوراق القطن الخضراء حين تصيبها الدودة واللطم، وأفواههم مفتوحة وعيونهم محمرة بالرمم والرماد تحاور الضوء وتداوره لتستطيع أن تتابع الواعظ وهو يتحدث حديث العالم الخبير عما يناله المذنبون، وكيف يتولى أمر كل منهم أربعة من زبانية الجحيم الغلاط الشداد . . يخلعون عنه ملابسه . . ثم

ينهالون عليه ضرباً «بمقرعة» من حديد لها أسنان تنهش لحمه، وتشدش عظامه، حتى إذا ما استوى وشبع أخذه الى طابق آخر من النار. . وتولوا إدخاله في مواسير جدرانها من اللهب. . يظل يحرق وهو حي، وكلما ذاب جلده كان له غيره ليتجدد عذابه. . فاذا عطش وطلب ماء سقوه من ماء النار، وماء النار من حميم وغساق. .

الغالبية كانت تسمع الواعظ، ولا تكاد تعرف ما المقرعة، ولا الحميم أو الغساق، ومع هذا فمن طريقة الشيخ عبد الحميد في الالتقاء، ومن غرابة الأشياء التي كان يرويها ورهبتها، كان التأثير قد بلغ بالناس حد البكاء.

والأقلية كانت تتابع حديثي، وكنت قد تعديت حدود كل معقول وأخذت أروي لهم تفاصيل دقيقة مزعجة عن حوادثنا ونوادينا مع الجثث، وكيف أننا نتناول طعامنا أحيانا في المشرحة وعلى مرأى من البطون المفتوحة، وأحيانا أخرى كثيرة نلعب «الكوتشينة» على صدور الموتى، وكيف أنني صنعت من العظام والجماجم محابر ومساطر وأقلاما. . ثم حكيت لهم قصة طويلة عن الذراع الذي اشتريته مرة من فراش المشرحة، وأخذته معي الى حجرتي، وما أحدثه من هرج ومرج بين سكان البيت. . الخ. . الخ.

وسألني أبو الهول وهو لم يعد يحتمل:

- واشتريت الذراع بكام يا دكتور؟

وتصنعت التذكر وقلت:

- والله خدته من الراجل يومها بريال .

فقال مبهورا :

- أماه .. يا خير أسود ومنيل .. أمال يا خواتي بني آدم على
بعضه يسوى كام يا دكتور؟ ..

فقلت وأنا أهز أكتافي :

- والله ما اشتريتوش .. انما يسوى له جنيه كده والا اتنين .

وانطلق المستمعون يرددون في ذهول :

- شوف يا أخي .. أي والله .. صحيح .. ما أرخص من بني
آدم ..

- دي عبر لمن يعتبر ..

- لازم دول كانوا عملوا في دنياهم عمل يغضب الله ..

وسألني أبو الهول وقد بدأت ملامحه تتحرك .. وعينه تتفتح ،
وملامحه تعلوها دهشة :

- ويبجيوا الناس دول منين يا دكتور؟ ..

والحق أني ما كنت أعرف .. فزعمت أن هناك متعهدا يورد
للكلية ما تحتاجه من جثث «قياسا على متعهد الضفادع في
اعدادي» ..

وكان الشيخ عبد الحميد في هذه الأثناء قد قارب الانتهاء من

حديثه، والناس قد طال استماعهم الى وصفه الدقيق لما ينتظر العاصين حتى بلغت أرواحهم الحلقوم. فما كاد يستثني من العذاب ويقول: «الا من خشي ربه...» حتى هاج الناس وماجوا يتنفسون الصعداء.. وقد عثروا أخيرا على طاقة أمل.. ويشتون أنهم حقا وصدقا مؤمنون خاشعون، ويقولون في نفس واحد مبهور: «لا اله الا الله»..

ورأيت الشيخ عبد الحميد يتطلع اليهم بوجهه السمين الذي كسته حبات العرق، ويفرك كفيه مسرورا.. فحماسهم ذاك كان خير دليل على الأثر الخطير الذي أحدثه كلامه.

وتطلعت أنا الآخر الى جمهوري.. كان كل شيء على ما يرام.. وكدت أفرك كفي أنا الآخر.. لولا ابتسامة أبو عبيد الباردة التي لم تكن قد جفت بعد من فوق ملامحه..

وأطلقت آخر سهم في جعبي، ومضيت أحدثهم عن الملل الذي أصابني من طول الاجازة وعن شوقي إلى تدريب يدي ومزاولة التشريح، ولكي أقطع دابر الشك قلت انني حتى مستعد أن أدفع في الجنة خمسة جنيهاً.. انما.. أنا فين والجثث فين؟..

وخرجت من المآتم يومها مرفوع الرأس.. حتى إن أبو عبيد قال لي وهو يودعني:

.. مع السلامة يا بيه..

ولم أراجع نفسي، ولا فكرت بعد هذا فيما قلته، ولا في التخشب الرمي أو مقارع الحديد ذات الأسنان.. كانت في نظري

أحاديث ماتم وجلسات لا أكثر ولا أقل . . تكون اذا قامت، وتنفض معها.

ولكنني استيقظت ذات ليلة على نباح كثير يهدر أمام بيتنا حتى خلعت أن كلاب جيراننا تطارد عزرائيل . . وسمعت بابنا يدق . . ولم يفزعني ذلك . . فكثيرا ما كان يدق في أية ساعة من ساعات الليل ويكون السبب مغمص مفاجيء أو بول محتبس .

كان الدق يزعج أبي فقط، ويجعله يلعن اليوم الذي أدخلني فيه الطب . . فقد كان يخاف أن أخرج لرؤية مريض مرة فيتربص لي واحد في الظلام ويقتلني . أما لماذا يفكر أحد في قتلي فذلك سؤال لم يخطر لأبي أبدا . .

فتحت الباب ففوجئت بإنسان محني يحمل فوق ظهره (زكية) مملوءة لحافتها ويقول:

- مسيك بالخير يا دكتور . .

الصوت مألوف، ولكن رغم الليل كان وجود بآخر أنفاسه وشعشة الفجر قد أوشكت، لم أستطع التعرف على صاحبه . .

- مين؟ . .

- اني صالح . .

- أبو الهول؟ . .

- أيوه أبو الهول يا دكتور . . يقالي ساعة اخبط لما الكلاب

كلت رجلية . . وسع شوية . .

وتراجعت الى الوراء قليلا . فاستدار وأنزل الزكية على الأرض
ثم قال :

- الأمانة أهه . .

- أمانة ايه ؟! . .

كنت أسأله وأنا أنظر الى وجهه، وأحاول ادراك ما لم يستطع
قوله . . ولم أر على ضوء «اللمبه السهاري» الا أن - أبو الهول -
يبتسم، وكانت أول مرة أراه يبتسم . . فأدركت أن الأمر أخطر مما
توقعت . .

ونطق أبو الهول وقال انه كان عائدا الى الكفر بعد سهرته في
البلد فرأى جثة غريق طافية في المصرف . . فقال : بس، وأخرجها
من الماء ووضعها على الجسر . . ثم عاد جريا في جري إلى بيت أبو
شندي، وشحت منه زكية على ذمة الطحين، ورجع إلى المصرف
جريا في جري، وعبى الجثة، وحملها، وخرم من الذرة الصيفي
حتى لا يراه أحد . . وتسلى الى بيتنا بها . .

ووقفت أتابع كلامه، وأنظر الى طوله وعرضه وعيونه الوارمة
وأشم الرائحة الفظيعة التي أدركت أنها تنبعث من الزكية، وأنا
مذهول مذهوش أكاد لا أعي مما يقول حرفا . .

ووجدت نفسي أنفجر فيه . .

وانتظر الى أن انتهيت وقال :

- جرى ايه يا دكتور. . انت طلبك حدانا غالي قوي. . احنا
 بذاك اليوم. . وان كان ع الخمسه جنيه أني مش عايز خمسات. .
 اللي تحط ايدك فيه أني قابله. .
 ولم أعد أحتمل ، واندفعت أمره والغيط يخنقني أن يعيد الجثة
 كما كانت تماما. .

وصبر علي حتى جئت بكل ما عندي ، ثم برش عينيه وقال :
 - وزعلان قوي كده ليه يا دكتور. . بلاش نضرب في
 العالي. . هات يا سيدي جنيه والعوض على الله. .
 وانفجرت فيه مرة أخرى. .
 - انت اتهيلت. . انت اتجننت. . انت جرى لعقلك. .
 فرفع يده في فروغ بال وقال :

- الاله يا اخواتي. . بلاش الجنيه راخر. . هات يا سيدي ريال
 خيلنا ننفض. . عدتها دراع بس يا دكتور. .
 وأخيرا جدا. . بعدما ارتفع صوتي ، وبدأ الغضب واضحا تماما
 في ملامحي استطاع أبو الهول أن يفهم أني لا أساوم ، وأن عليه أن
 يعيد الجثة الى المصرف في الحال. .

وهنا تجمدت ملامحه ، وعادت الى جدها الذي لا ينفك ،
 وأغمض عينيه وقال :

- كده. . بقى تعملها في يا دكتور. . هم الأفندية كدابين يا

اخواتي . . تحلف ع المصحف انك ما قلت الواحد بخمسة جنيهه . .
تحلف . . قلت والا مقلتش . .

وثار بيننا جدل طويل . . أنا أصر على أنني لا أذكر شيئاً، وهو
يعيد على مسامعي ما قلته كلمة كلمة ويعطي الأمارات والشواهد . .
ولم أوفق في اقناعه بإرجاعها اذ كنت أتعرّ وأنا أقنعه في الخجل
الشديد الذي كان يملأ نفسي ، ولما لم أجد فائدة هددته بإبلاغ الأمر
للعمة . . وحينئذ اريدت ملامحه وبدا كأنه سيثور ثورة لا يعلم الا
الله مداها وقال :

- كلام ايه ده يا ولاد . . بقى تعملها فيّ كده والآخر تبلغ . .
طب ورحمة ابويا محمد أبو صيام ماني مرجعها واللي معاك اعمله .
وبلغ مطرح ما تبلغ . . انت مش قلت الواحد بخمسة جنيهه . . قلت
والا ما قلتش . . بقى تعملها فيّ كده وتبلغ . طب بلغ . ورحمة أبويا
محمد لاسيهالك وماشي . . قلت والا ما قلت .

ويبدو أن صوتنا كان قد ارتفع حتى أقلق أبي . . فقد وجدته
يبرز من باب حجرتة ويقول :

- ايه جرى ايه ؟ . .

وأسرعت اليه أرجوه الا يزعج نفسه . . وأحاول اقناعه ان
المسألة مغص لا أكثر ولا أقل ولكني كنت متأخراً . . اذ كان قد لمح
صالح واقفا بوجه لا يبشر بخير فقال :

- والواد ده عايز ايه . . دا الواد ده حرامي «والظاهر أن الفلاحين

كلهم حرامية عند أصحاب الأرض» . . دا بيسرق الكحل من العين
وابوه من قبله . . ايه اللي جابك دلوقت يا وله . . عايز ايه . .

كان أبي يقول هذا وهو يتجه الى الباب، والى صالح، ولم
استطع أن أتدخل فيما حدث بعد ذلك . . فقد تعثر أبي في الزكينة،
وكاد يسقط وتساءل غاضبا عم جاء بها، وعم جاء بصالح، وقال وهو
يتحسسها ويحاول أن يخمن محتوياتها:

- ايه ده يا واد يابو الهول . . انت سارق بطيخ يا ابن الـ . .
وجايبه هنا ليه يا وله . . والدكتور ماله . . دا مش بطيخ . . أف . . ايه
ده يا خويا . . أعوذ بالله . . أعوذ بالله . .

وصرخ أبي صرخة عالية مفاجئة، وكانت تلك أول مرة أراه
يصرخ والفرع يملأ عينيه والرعب قد تملكه . . واندفعنا اليه أنا
وصالح نسنده حتى لا يتهاولي، وسرت به وحدي الى الفراش
والصدمة قد أفقدته القدرة على السؤال أو الاستفسار أو حتى النطق،
ولكن لم يدم ذلك سوى لحظات . . استرجع نفسه تماما بعدها،
وجلس ينصت لي وأنا أحكي له ما كان من أول ما طقطع الحديث
في المأتم . . ينصت وهو يخط كفا على كف ويقول:

- مجرم . . حرامي ابن حرام سل مل . .

ولما عدت الى أبو الهول وجدته جالسا مسندا ظهره الى
الحائط ورأسه مائل في تأثر عميق . . وحين رأيته وقف وقال:

- سلامته لفندي . . يا خبر أسود ومنيل . . ودي كانت شورة ايه

السودة دي . . سلامته .

وهززت رأسي وأنا أعد الدش البارد الذي جهزته له ولكنه
كفاني مؤونة الكلام فقد وجدته ينحني على الزكية ويمتحن متانة
رباطها ويقول:

- والنبى يا دكتور أنى عمري ما حلفت برحمة أبويا محمد
باطل انما عشان خاطر والدك . . يا خبر أسود يا ولاد . . دا الواحد
خزيان من روحه . . يا شيخ داني انبلت م الكسفة . . اللهم اخزيك
يا شيطان . ما كنت مروح في حالك يا وله مالك ومال خشب الرمة
والزفت ده . . انما تقول ايه . . يا خبر اسود ومنيل . . داني كنت بقول
لروحي زمان الدكتور حياخدك بالحضن يا وله . . والختمة الشريفة
عمري ما حلفت بحياة ابويا محمد باطل .

وكان قد أوقف الزكية فالتفت إليّ قائلاً:

- والنبى يا دكتور ولا صغرة تسندها سندة صغيرة . . بس أوعى
هدومك . . هه . . يا قوة الله . .

ورفعها بقوة جبارة فوق كاهله، وتمتمت وأنا لا أكاد أستطيع
الكلام:

- معلش يا صالح . . تتعوض . . معلش .

فقال وهو يستدير وتستدير الزكية وراءه ويتجه الى الباب .

- والا عليه . . أهى ان طلعت والا نزلت زكية . . هي يعنى
والا المقمعة اللي بيقول عليها سيدنا الواعظ . . أهى ان طلعت والا

نزلت زكية . . حتكون أكثر من اللي بنشيله . . يا شيخ قول يا رب .
 وكان قد خرج من الباب ، وكاد يختفي في الظلام حين فوجئت
 به يتوقف . . ثم يستدير ليواجهني ويقول من تحت الزكية :
 - بس افكر كويس يا دكتور . . بدمتك يا شيخ وديانتك والأمانة
 عليك . . قلت والا ما قلش ؟ . .

الجرح

فاجأنا الرئيس حين طلب منا أن ننتظر. قالها بلهجته البحرارية وكان كلامه من لحظة أن عرفناه قليلا. وكان من نوع لا يرحب بالجدل ومع أن كل شيء كان على أتم استعداد، الا اننا سكتنا كلنا ونحن متأكدون أن لا بد هناك ضرورة لهذا الانتظار، غير أن حلمي لم يسكت.. عوج وجهه وأسبل جفنيه وقال للرئيس: احنا مستعجلين. ولزومه ايه الانتظار؟

ويبدو أن كلامه تبدد ولم يصل الى آذان الرجل، فقد كان مشغولا بشيء ما يعدل من وضعه في «القلع». وأخرج حلمي حين لم يتلق ردا على سؤاله فعاد يقول:

- مستنيين ايه يا ريس؟

ونطق الرجل كلمة ولم نتبينها، فقد كان يمسك مسلة بشفتيه بينما يدها مشغولتان. والتفتنا جميعا نحوه فرفع المسلة وقال:

- واحدة ست.

قال حلمي هذا وتمدد، وأحدث تمدده انكماشات في الأرجل
وثنيات هنا وهناك، وأصوات احتجاجات كان مبعثها أننا نعرف أنه لا
يريد النوم بقدر ما يريد أن يرينا سخطه على الوقت الضائع.

وركز الرئيس عليه انتباهه لحظة، ثم ابتسم وقال:

- اسم الكريم ايه؟

فقال حلمي وهو يزفر:

- زفت.

وعاد الرئيس يسأله:

- ودستورك منين؟

واعتمدل حسن وقال:

- منين ايه يعني؟ اشمعنى يا ريس؟

فقال الرئيس وهو يجذب حبلا:

- بسأل.

وقال أحدنا:

مصيبة ثقيله.

وأجاب آخر:

- ع تعطلنا. . ويمكن تودينا في داهية.

ولعب ثالث بيده في الماء ونثر قطرات على الباقيين وقال:

ولا بد أن دهشة كبيرة انتابتنا فقد تمللنا، ونطق أكثر من واحد
مرددين :

- ايه؟ ست؟!

واحتج حلمي مخفيا غبطته قائلا :

- ست ايه؟ وده وقته؟ انت مش فاهم والا ايه يا ريس؟

وأجاب الرئيس والمسلة بين أسنانه هذه المرة، ثقلب الذال
جيما، وتعطب الكلمات :

- لاجم ناكدها معنا.

وانهالت الأسئلة والاحتجاجات. وانتظر حتى فرغنا وقال :

- أنا حالف بالطلاق لازم آخذها.

وارتفعت أصوات احتجاجنا أكثر فأكثر.

- دي ساقط عليّ الدنيا، وباتت مع مراتي عشان تضمن تيجي
لغاية ما حلفت لها يمين الطلاق.

وأبغ كلامه بابتسامة يرضينا بها. كانت له سنة من بلاتين
براق، وكان وجهه نحاسيا أسمر، ورموشه صفراء طويلة، واللاسة
التي تعمم بها من حرير، وفانلته زرقاء من الصوف تنتهي بياقة
مسدودة تحيط برقته وأكمام طويلة مثنية، وله سروال.

- هه.. أناام أنا يقى .

- مش ممكن ناخذها.

واتفع صوت يسأل:

- ودي عايزه تروح ليه؟

ونظر صاحب الصوت إلى الرئيس وأعاد نفس السؤال.

ولم يرد الرئيس، وكنا كلنا نتوقع هذا. كان لا يجيب الا على ما يحلوه الاجابة عليه، وأحياناً يكتفي بالتحديق في سائله وهز رأسه.

كان ثمة هدوء على الشاطيء.. هدوء متكاثف ثقيل. والهدوء حين يتكاثف ويستتب يصبح شيئاً مروعا. وكانت الدنيا ليلاً والبلدة ساكنة هاملة بجوارنا، بيوتها أشد سواداً من الظلام، بيوت قديمة مترابطة حيطانها لا تحتل البرد، وطوابقها متآكلة متساندة كجماعة من خفر الليل العواجيز، وتجاهنا شارع واسع جداً يسمح ضيق البلدة باتساعه، وتلمع فيه برك ماء وتتجمع على حوافه أكوام من قشر الأرز الذي تنفثه ماسورة طويلة تمتد عبر الشارع وتنتهي في مضرب الأرز، أعلى بناء في البلدة، والبناء الوحيد الصاحي، اذ كان يعمل رغم اطفاء الأنوار والأوامر، وتتصاعد دقات وابوره لب دب، لب دب، لب دب، موحشة كثيفة في البلدة المظلمة، كأنها القلب لا يزال يدق في جثة ماتت وشبعت موتاً.

وكان قاربنا واقفاً على حافة البحيرة وظهر البلد اليه. وكنا اذا التفتنا الى البحيرة ضاعت أبصارنا بين البحيرة الراكدة المظلمة في

السماء، والسماء التي استقرت بنجومها في قاع البحيرة. وكان قلع المركب مطويا نرى بدايته القريبة منا، ولا نرى نهايته المذابة في الظلام. وكنا أربعة، والقارب صغير، وحلمي مضطجع، والريس جالس القرفصاء مستندا الى الصاري، والريح نائمة، ودق الوابور يصل الينا بانتظام يضايقنا انتظامه، وأنفاسنا تتقارب وتتباعد، والأحداث كثيرة، وغريبة ومتتابعة، وكلها تحدث في يوم واحد. ونتنفس بعمق فتمتلئ أنوفنا برائحة الزفارة. كل ما في البلدة يضج بها. . الأرض والبيوت ورغبات الناس والقوارب. . فالبلدة أهلها صيادون، والسمك صناعتهم، وفي كل مكان تجد آثاره، والقارب يهتز اهتزازات خفيفة، يجذبه موج صغير الى الداخل، ثم يدفعه الموج الكبير ليصفع به الشاطئ، والريس كوعه فوق ركبته، ويد من يديه ممدودة الى آخرها، واليد الأخرى فوق الدفة، ورموشه الطويلة مسبلة، وفمه نصف مفتوح، ويكاد شخيريه يتصاعد.

. واهتز القارب، وتحرك واحد، وخرجت في الظلام علبة سجائر، وتناولناها كلنا، وأخذ الريس سيجارة. . وضعها بين اصبعي يده الممدودة ورفض أن يشعلها.

ومضى الدخان يتصاعد من أنوفنا وأفواهنا في صمت والبقعة التي نحن فيها أصبحت صفحة سوداء، فيها طع بيضاء تحدد هيكل القارب، وولعة أربع سجائر تتوهج، وفوانيس النجوم الصغيرة تتأرجح، وناب الريس البلاطيني يبرق.

وقال حلمي فجأة:

- دأمش كلام، ما نرجع أحسن.

قال هذا وهو ينتفض بشدة ويقوم. ومال القارب حتى كاد ينقلب، وارتطمت جبهته ارتطاما عنيفا بالصاري حتى إنه صرخ. وما كاد القارب يعتدل حتى كانت يده تتحسس جبهته، وحتى كان يقول:

- أنا اجرحت يا جماعه. والله اجرحت، ياه! ده فيه دم. ادوني منديل.

وحدثت ضجة، وتناثرت الشتائم من فم حلمي، وكثرت التعليقات. ثم خمد الكلام وانقطع، ودلفنا الى سكون لا يعكره الا صرير الصراصير المتصل الدائم.

ورفع الرئيس رأسه مرة وهدق الى بعيد، وتمايل القارب حين اندفعنا كلنا لنهدق.

كانت ثلاث كتل سوداء تتحرك مسرعة في اتجاهنا.. كتلة قصيرة صغيرة في المقدمة، والكتلتان اللتان وراءها تحاولان اللحاق بها وتخوضان برك الماء دون جدوى.

ولم يكن القارب قد تحرك، أو حتى كان في نيتنا أن يتحرك، ومع ذلك كانت من في المقدمة لا تكف عن الصياح:

- أوع تمشي.. أوع تمشي يا خويا. أنا أه.. أنا جيت..

وفي غمضة عين كانت قد وصلت وقذفت بنفسها الى القارب، ولولا أننا قمنا جميعا وتلفناها بأيدينا لكانت قد هوت الى الماء، ومددنا اليها أيادي كثيرة تساعدنا، وأمسكت بأيدينا في قوة، وتحفز،

وعصبية، وكانت أصابعها حادة صلبة ذات تجاعيد، والقبضة قبضة أم.

وأفسحنا لها مكانا، ولكنها لم تجلس.. ظلت تتلفت في قلق ولهفة ولا تستكين، وتود أن تقول أي شيء وتساءل عن كل شيء..
وحين وصلت الكتلتان قالت بسرعة وحسم:

- روحوا انتم بقي..

قالتها كمن يود رفع الهلب الذي يربطه بالشاطئ لينطلق.
وتكلمت المرأتان.. في وقت واحد.. وكلام كثير. واحدة طويلة وعجوزة. وكلامها أيضا طويل عجوز.. والثانية فتاة. لا بد أنها جميلة فصوتها كان فيه رنة من اعتادت الثقة في نفسها وجمالها..
كانتا لا بد أخت وبنت أخت، وكان رد الخالة واحدا حاسما لا يتغير:

- روحوا انتم بقي.

ولم ندر لإصغائنا للحوار مبيبا. وعقولنا بدت لنا كالصفحة البيضاء التي لم يخط فيها حرف.. وما نسمعه كأنه أول كلام عربي نسمعه.

وأفاق واحد وغمز لجاره:

- مصيبة وجت لنا على الآخر.

وقال له جاره:

- ح تخاف دلوقت وتبهذل الدنيا.

وقالت الخالة مرة :

- روحوا انتم بقى .

وخرجت الجملة دون أن يسبقها أو يعقبها رد من الشاطيء . كنا قد ابتعدنا .

وبدت البحيرة لا نهاية لاتساعها وأصبحنا بالقارب والريس والصاري نقطة تافهة في الوجود غير المحدود . وتلك هي البحيرة فقط ، فما بالك ونحن من لحظة أن غادرنا القاهرة وطريق طويل يسلمنا الى طريق أطول ، والأرض الخضراء على الجانبين . أرض واسعة لا حد لاتساعها أوسع من أي شيء رأيناه ، أوسع من السماء ، فالسما تضييق بسطح الأرض ، فتحنى السماء وتصنع خط الأفق ، والأرض لا ينهيها خط ولا أفق . فبعد كل أفق تجد آفاقا أوسع .

والقرى كثيرة لا حصر لها ، بين كل قرية وقرية قرية ، وفي كل قرية مئات البيوت ، وكل بيت يعج بعشرات الناس ، وكل هؤلاء مصريون - كلهم مصريون - لا يمكن أن يموتوا كلهم أبدا . ونترك أقليما وندخل اقليما والأرض لا تنتهي والناس لا ينتهون . أناس متشابهون ، وجوه لها لون أرضنا السمراء ، وذقون وشوارب كشوش الأذرة ، ونفس السحنات ، وكأنهم رجل واحد مصنوع من ملايين الرجال . ويقولون ان سيدنا نوح كان طوله ألف ذراع . ترى كم طول هذا العملاق الذي لم نعثر له على بداية ، وظلت السيارات والقطارات تقطع بنا الأميال والأميال ولا نعثر على نهاية . حتى حين

وصلنا المطرية، وانتهت الأرض وبدأت البحيرة، لم ينته العملاق بل تحول الى يد ضخمة، يد ذات عشرات الآلاف من الأصابع، يطلقها في ماء البحيرة فتملك البحيرة وتعتصر من مياهها خير ما فيها، وكما يحدث لليد اذا امتدت الى الماء وطال امتدادها، فالناس تصفر شعورهم، وتبهت بشراتهم، ويصبح لعيونهم زرقة الماء. ويتغير شكل الجسد ولا ينتهي العملاق.

كنا قد ابتعدنا.

وكل شيء أصبح مستقرا ما عدا الرئيس . . كان دائب الحركة لا يهدأ. المذارة في يده يغرسها في قاع البحيرة ثم يدفعها بصدرة، وأرجله تمرق من وراء ظهورها وتدور حول القارب، وأصابع قدميه تشبث بالحافة في حنكة ودراية وكأنها قد تحولت الى مخالب صقر. وحركته تبهرها، وكأنه يقوم بمعجزة، يميل ليدفع القارب أكثر حتى لنعبره ساقطا في الماء واذا به يرتد، والمذارة قد انتزعها وكأن ألف حبل خفي تصل بينه وبين الصاري، وتحميه من السقوط.

ولم تكن الراكبة الجديدة انسانية، كانت كتلة قلق حية جعلتنا نحس أن روحا جديدة حلت بيننا وبيننا، عيناها تنظران إلينا ولا تتفحصانا، وأيديها على ركبها، وأيديها على الحافة، وأيديها تضرع لإله غير منظور ورأسها يدور ولا يستقر، ويشني فجأة الى الشاطئ، ثم يرتد ويعود ويدور. وما كاد الرئيس يفرد القلع حتى التفتت اليه وقالت:

- مش على طول يا خويا . .

وقال الرجل بلكنته البحراوية والمدراة لا تزال تحت ابطه :

- ايواه . . ربنا يسهل . .

وردت الخالة :

- انشالله انشالله الهى يخليك . .

والتفتت الى الجالس بجوارها وسألته :

- وانتو كمان .

فأجاب حلمي ويده تتسلل دون وعي وتحسس مكان الجرح
في جبهته :

- واحنا كمان . .

وعادت تسأل الرئيس :

- ونوصل امتى . . ؟

فقال حلمي :

- حد عارف . .

وأعادت السؤال وابتلعت ، فقال الرئيس :

- يا أمي ربك يعدلها . .

واستمرت :

- يعني بعد ساعة؟ . . إلهي يخليك لشبابك . . بعد ساعة؟

ولما لم يجب الرئيس ، التفتت الى حلمي وسألته :

- بعد ساعة يا بني ؟ الهني يخليك . . بعد ساعة والا أكثر؟

وهنا زعق الرئيس وقال :

- دا بتاع ربنا يا ستي . واللي منه لا بد عنه . هو ما فيش صبر؟

والصبر هي الكلمة التي كان يبحث عنها كل منا ليسمي الرائحة التي أشاعتها الخالة من لحظة أن جاءت . كانت ترتدي كمعظم الخالات ثوبا أسود وطرحة سوداء ، ولا يظهر من جسدها غير وجهها فقط ، وثيابها كانت تبدو وكأنها لم تخلعها منذ أيام كما لو كانت أردية ميدان . وأشاع قدومها تلك الرائحة ، رائحة العواجيز التي لا يعرف أحد إن كان سببها هو رائحة الصناديق التي تحفظ فيها الثياب . أو هي رائحة نسيج الملابس نفسه . المهم أنها تذكرك بجذتك ، وبالماضي ، ومع أنها ليست عطرة الا أنك لا بد تحس بالألفة تجاهها ، ولا تتأفف .

ولم تكف الخالة عن الكلام منذ جاءت . . ولم نكن نتكلم . . والرئيس هو الآخر ساكت . كانت قد مضت ساعات ونحن نترقب ، كل ما يهمنا هو اللحظة التالية وما يحدث فيها . والكلام لا يدور في جو الترقب ، ولا يدور ساعة الضيق . . وكل شيء قد حدث على حين بغتة . كنا في بيوتنا وأعمالنا وقال كل منا للآخر: ياللا ، وإذا بنا في الطريق وكان كأن لا ينقصنا سوى الاحتكاك لنشتعل . وأصبح أهم شيء لدينا أن نرى ونسمع ونجهز انفسنا للمشهد القادم والكلمة

التالية . . ووصلنا المطرية في الضحى ، وانتظرنا الى أن يحل المساء
لنعبر البحيرة الى هناك ، وقضينا اليوم بطوله نعيش في بلدة الانسان
والسمك . . والحياة تمضي من حولنا كما اعتادت أن تمضي طوال
آلاف من الأعوام . . الرجال ذوو الشعر الأصفر والبشرة الفاتحة
والأفواه المفتوحة على الدوام كأفواه البلطي يتزوجون البنات ، والبنات
شقروات ، أجسادهن لها تناسق «المز» ورشاقة الطوبار ، وطعمهن
أشهى من السمك الطازج اذا شوي في الفرن وأضيف اليه الفلفل
والمح والثوم وعصير الليمون . ولهذا فكل يوم زواج ، والأطفال كل
يوم يولدون ، الأسماك هي الأخرى تتوالد ، ثم وتتكفل البحيرة بصغار
الأطفال وصغار السمك . صغار الأطفال طول النهار في الماء يألّفون
الماء المالح ويألّف الماء المالح أجسادهم ، ولا أحد ينهرهم ، ولا
يخاف عليهم أب ، فالبحيرة للصيادين غول مستأنس .

ويكبر الطفل فيكبر حب استطلاع ، ويترك الشاطئ ويتعلم
العوام ، وصغار السمك أيضا تتعلم العوام . ويصبح طول الطفل متر
وطول السمكة قراريط . . ويذوق الطفل طعم السمك ، ويذوق
السمك طعم الطعم فلا ينسى الطفل حلاوة السمك ، ولا ينسى
السمك حلاوة الطعم . ويمسك الطفل بسنارة ويخرج سمكة وتهزه
الفرحة فقد هزم العالم المجهول الكائن وراء السطح البراق . ويهزمه
مرة ذلك العالم المجهول ويعود خاوي الوفاض . ويفهم الطفل أن
السنارة نصفها في يده يخضع لإرادته ، ونصفها الآخر يعتمد على
رغبات مجهولة في العالم المجهول .

ويسمع أباه يقول الحظ، ويردد الكلمة لا يعرفها، ثم يردها وهو يعرفها ويؤمن بها، يؤمن بقانون آخر يحكم العالم المجهول، قانون لا يخضع لقانون. . ولا يستسلم الانسان حتى لو كان خصمه قانون لا يخضع لقانون، ويبدأ الصراع الرهيب بين الصياد الصغير والبحر المجهول، ولا بد من أشياء تؤنس وحشة الإنسان في ذلك الصراع. لا بد من علامات تشاؤم وتفاؤل، لا بد من موال، لا بد من حدوتة، لا بد من أمل طويل لا ينقطع، لا بد من الصبر. . الصبر.

رائحة الصبر كنا نستنشقها ونتمثلها والقارب قد اندفع وابتعد عن الشاطئ وأصبحنا في قلب البحيرة، وشعاعات خفيفة متباعدة تنتشر في الأفق وتبشر بطلوع القمر، وهددة. . أصوات هدهدة هي كل ما يسمع والقارب يرفعه الموج الصغير ثم يرقده بحنان على سطح الماء، والموجات تهتز، والنجوم تهتز، والرئيس عند المؤخرة يهتز، يد على الدفة ويد ممسكة بحبل القلع توجهه ليعترض الريح. والريح شفاف خفيف، والدنيا برد، والبرد يكاد يتحول الى ابر. . ابر طويلة ثاقبة تحرق أجسادنا حتى تصل الى النخاع، والخالة جالسة، لا منكمشة على نفسها ولا منطوية وكأنها نعسانة أو ميتة.

وقال لها حلمي :

- دانة يا خالة؟

فأجابت :

- آه. . باقي كثير. . يجي ساعة يا خويا؟. .

ونطق الرئيس :

- أنوي المشيئة يا شيخة . . قولي انشاء الله .

فقالت الخالة على الفور :

- انشاء الله يا خويا انشاء الله باذن الله . بعد ساعة؟

وكادت موجة الحايث تنتشر لولا أن الرئيس أسكتنا، فالهدوء مخيم، والكلام ينقله سطح الماء المستوي الى مسافات بعيدة، والبحر له آذان.

ورحنا نهمس . قالت الخالة :

- انتم كمان رايعين؟

فقال حلمي :

- أيوه . .

وسألتنا كلنا :

- ورايعين ليه؟ انتم من هناك؟

- لأ . .

- ليكو قرايب أمال؟

- أبدا .

وقال الرئيس وهو يتسم :

- ما قلتلك دول فداوية يا ست . .

وتمللملنا، فلم نكن من الفدائيين أو المحاربين، وهمنا أن ننطق
ولكن الحالة تمنعت فينا وسالتنا:

- انتو صحيح فدائية يا ابني؟

فقلنا:

- أمال ح نكون ايه يا خالة .

وتركت الحديث ووضعت يدها برفق على كتف حلمي وقالت:

- ما تحطش ايدك ع الجرح يا ضنايا لحسن وحش...

وأنزل حلمي يده بعد تردد، واختطف سيجارة من واحد منا
وسألها:

- وانتي رايحه ليه يا ست؟

ولم تجب ولمحنا دموعا تهطل على الفور من عينيها دون بكاء،
واستغربنا، وأعاد حلمي السؤال فقالت:

- رايحة أشوف ابني .

ولم تنطق «ابني» حروفا كانت من دموعها أكثر من الحروف وهي
تنطقها .

- ابنك ماله؟

وأجابت:

- ابني يا خويا : . هناك . .

- يعمل ايه؟

- مجروح .. مجروح يا ضنايا وما شفتوش بقالي شهر.

واندفعت تبكي . وشل بكاؤها ألسنتنا، ولكن حلمي الح :

- مجروح ازاي؟

ومضت تتكلم وتبكي وتتكلم :

- جتله رصاصتين في رجليه .. الهى يتقم منهم البعدا.

- ليه؟

- كان بيحارب في الهوجه ساعة ما نزلوا.

- كان بيحارب!؟

قلناها كلنا مبهورين، وكأنا نردد أمنية غالية، وكأنا نطلق دعوة. ولم تكن أمانيتنا وحدنا، كل من قابلناه كان يرددها، وقليلون هم من أتاحت لهم الفرصة، فالمعركة كانت حادة وباترة نشبت فجأة، وانتهت فجأة، ولم تستمر سوى أسبوع وكأنها طعنة خنجر، حتى أصبح في نظرنا البطل هو من كان هناك والمقدس هو من اشترك فيها، أصبح كل من اشترك فيها يحف به في نفوسنا نوع من التقديس وكأنه أسطورة، وكأنه كائن غير موجود، فاذا بالخاله ابنها قد حارب، وجرح، وقلنا لها:

- وزعلانة ليه؟ .. ابنك بطل.

- عايزه أشوفه ..

- دي اصابته بسيطة، ومالك نازله بكاء عليه يا ستي؟

- بقالي زمان ما شفتوش.. مشتاقاله وجيت مرة المطرية قبل كده.. وركبت القارب.. ووصلنا بور سعيد.. والانجليز حاشونا ثلاثة أيام وكان الرصاص زي الناموس فوق روسنا وبعدين رجوعنا.. ودي تاني مرة.. ح نوصل امتي يا خويا؟.. الهى يخليك.. عايزه أشوفه.. مش قربنا؟

وتناهى السؤال الى وعينا غريبا مدويا. وانطلقت عيوننا نستكشف البحيرة. وفقدنا الابصار في المسطح اللانهائي من الماء، وغابات الحشائش المتناثرة، والسماء ذات الضوء الشاحب والقمر المكسور الذي بدأ يزحف صوب الأفق، ولا شيء سوى هذا.. لا شيء سوى الماء الكثير الأسن، الماء الأسير، الباقي بعد الصراع، صراع النيل والبحر الكبير، النيل الهائل الذي أنشأ أظافره في البحر وأسر الكثير من مائه، وحاصره، وصنع البحيرة، لا شيء سوى سكون.. سكون غامض مثير، مليء بأسرار والغاز، سكون الأسرى ومعسكرات الاعتقال، سكون مرعب مخيف، سكون البحيرة التي عبدها القدماء.

ولم نكن بعد قد عرفنا الكثير عن ابن الخالة.. كنا نود أن نعرف كل شيء عنه من لون شعره لطريقته في المشي.

قالت:

- أبدا يا بني.. لما الضرب خصل قال لازم تسافري. قلت ما اسافرش. قال لازم. قلت له يا بني انا ماليش الا انت وربنا. هو

حيلتي من دنيائي . . أسيتك ازاي . قال لازم وركبني المركب . ورحت مصر . يقطعني أنا اللي ما استنيت وياه . . يقطعني اللي سبته .

- وحارب؟!

- وحارب وجتله رصاصتين في رجله .

- وعرفتوا ازاي؟

- هو في المستشفى بيعت لنا جواب في الصليب الأحمر يا خويا . . وقال الخدمة زي الزيت ومفيش أكمل . يا بني يا حبيبي ! مين يجب له يشرب اذا عطش؟ مين يسقيه؟ مين يسأل عنه؟ واعتدلنا جميعا .

كان الأمر يتأرجح في نفوسنا بين الشك واليقين، كنا نعتقد أنها لا بد أم قد لسعها الشوق الى ابنها المحجوز هناك وصممت على رؤيته . وقصص البطولة مودة . كل قاطن هناك لا بد اشتراك، وكل قاطن بطل، وكل واحد قتل من الأعداء مئات . وتبادر إلينا أن الخالة هي الأخرى تود تضخيم الأمر واختلاق المستحيل لتصل الى هناك . . ولكننا اعتدلنا . . فغير الأم لا يستطيع أن يمثل أبدا دور الأم، وأم غير المجروح لا تستطيع أن تمثل أبدا دور أم ابنها المجروح . وكانت في جلستها التي لم تغيرها، والتي يخيل للانسان اذا رآها أنها واقفة، وواقفة على طراف أصابعها وليست جالسة، وعيونها وهي تنظر الى بعيد ولا تطرف ولا تمل الرؤيا والنظر وكأنها تشوف إلى حبيب، وكلماتها، والطريقة التي تنطق بها كلماتها، ودموعها التي تغرق

الكلمات وتغص الحلق، كانت بلا ذرة شك مجروحة وأم مجروح. اعتدلنا ونحن نحس بقشعريرة انبهار. . وكأننا ونحن ننظر إليها نعد الخالق أو نصلي للشرف.

وقال حلمي :

- خالة . .

- نعم يا خويا.

- انتي زعلانة انه حارب؟

- أنا يا بني زعلانة انه مجروح ودلوقت لوحده.

وقهقه حلمي كمن يود أن يغير طعم الحديث، وسألها في سخرية غير لازعة:

- طيب. . افرضي يا خالة انك كنت وياه ساعتها. . كنتي ح

تخليه يحارب؟

وانحدرت دموع كثيرة من عينيها، وقالت في لهجة روتينية:

- أيوه كنت أخليه.

وزام حلمي غير مصدق، فتابعته اجابتها بإخلاص هذه المرة:

- كنت اخليه اخليه. . انما لازم كنت أحارب وياه. رجلي على

رجله.

وقال حلمي مستخفا:

- تشيلي البندقية؟!

- أشيلها..

وتدخل واحد وقال:

- طب شيل انت ايدك من ع الجرح يا حدق.

وتنبه حلمي الى أن يده كانت قد عادت إلى مكانها فوق الجرح دون وعي منه، فأنزلها، وتوقف برهة، ثم تابع استخفافه ليداري خجله:

- وتضربي نار يا خالة؟

- اضرب ما اضربشي ليه؟ أهم يقولوا ان الستات كانت بتضرب.

وتابع حلمي استجوابه:

- طيب افرضي انه تعور وانتي بتحاربي معاه، تعملي ايه؟ وبكت ولم تجب. وأسكتنا حلمي. ولكنه فعل هذا للحظة ثم عاد يسألها:

- يا ستي دا الحكاية بسيطة.. وهو في المستشفى، وزمانه طاب. ومالك ملهوفة عليه قوي كده ليه. هو انتي لوحداك. ما كل واحد اتعور له أم زيك كده. ما كنت نستني لما يخرجوا الإنجليز وتروحي في أمان بدال ما تعرضي نفسك للموت كده. انتي لازم ترجعي وتستني.

فأجابته بلهجة هادئة ولكنها حاسمة:

- ما اقدرشي استني.

- ليه؟

- عايزه اشوفه. زمانه لوحده. عايزه اشوفه بعد اللي حصل. دا كان في الحرب يا بني. الهي ما يحرق قلب أمك عليك.
وضحكنا لذكر أمه، ومع هذا لم يملك كل منا بينه وبين نفسه الا يتذكر أمه، ثم ينفىها على عجل من ذاكرته.

وحلت لحظة صمت ..

الريح بدأت تنتعش، ونور السماء قد خفف كثيرا من ظلام البحيرة، والقلع منفوخ، وفم الريس مفتوح، وعيونه لا تغفو، والجو مملوء بالصرير المتصل الذي لا ينضب ولا ينقطع ..

وسألها حلمي بصوت شاعري عمود يقارب لهجتها:

- هو كبير يا خاله؟

فقال دون أن تنظر إليه، وعيناها هائمتان معلقتان فوق نجمة بعيدة في قاع البحيرة:

- اهو اسم النبي حارسه بيعجي قدك كده.

- ومتجوز؟

- خطباله ..

وارتفع صوت حلمي في هزار مفاجيء:

- وزعلانه قوي كده ليه؟ تلقاه كان طول النهار نازل فيكي

شتيمة.

- أبدا والنبي يا خويا . . دا لسانه مفيش أنضف منه .

- وكان بيشتغل ايه يا خاله؟

- عندنا دكانتنا يا خويا . . آمال هو قعد ليه؟ . . قال لي ما
أسيش الدكانه للانجليز ينهبوها أبدا .

- وكان بيعب مصر يا خاله؟

- مصر مين يا خويا؟

- مصر بلدنا . .

- وحد يا ضنايا يكره بلده . . الهى يخليك . .

وصنعت الدموع خطين رفيعين لامعين على وجنتيها، واندفع
حلمي يقول في حماس مفاجىء:

- قاسي ابنك راجل واتعور في معركة رجالة . اتعور وهو بيدافع
عن بلدنا وشرفنا . بكره يكتبوا اسمه في الجرائد وينشروا صوره .
فأجابت وهي تهز رأسها:

- بس عايزه اشوفه، عايزه أشوف ايه اللي جراه . . الهى يخليك
يا ريس . لسه كثير؟

ولم يجب الرئيس .

وهز حلمي رأسه في يأس، ثم تنبه فجأة وقال بالانجليزية وكأنه
عثر على كنز كبير:

- أتعرفون لماذا هي مصرة على رؤية ابنها؟

وقال له واحد بالعربي:

- ليه؟

فقال:

- انها تدرك بغريزتها أنه لا بد قد تغير بعد المعركة. تريد أن تبين ما حدث له من تغيير وكيف أمكن لابنها الذي ربه ورأته طفلاً، كيف أمكنه أن يحمل السلاح ويحارب. وتريد فوق هذا أن تطمئن الى أنه لا يزال ابنها بعد أن حارب كالرجال وحمل السلاح.

وضرب واحد يد حلمي التي كانت قد تسلفت مرة أخرى الى جبهته وقال بالانجليزية أيضاً:

- يا مغفل أهم شيء هو القوة الرهية التي تجذب الأم الى ابنها. القوة التي لا يقف أمامها حائل.

ولم يظفر التعليقان بتعليق، كل ما حدث أن الحالة ظلت تنظر اليهما وهما يتكلمان، ثم التفتت إلينا وسألتنا:

- أما انتورايجين ليه يا خويا؟

فأجابها حلمي:

- مش قلنا لك فدائية. مش مصدقة والا ايه؟

وكدنا نضحك لولا أن سمعنا الرئيس يقول:

- اسمعوا .

فسكتنا برهة . . وعاد يقول :

- سامعين ؟

وأصغنا أسماعنا . ومن بعد سحيق تلقفنا صوت هدير غريب
على السكون المستتب . .

وقال الرئيس :

- دا لنش .

فقال حلمي على الفور :

- لا . . دي طياره .

- بقولك لنش .

- أقطع دراعي ان ما كانت طياره . .

وخيل إلينا أننا ظللنا ساعة ننتظر النتيجة، وكان الرئيس يتكلم :

- الانجليز عملوا استعدادات جامده، طياره ام مروحه رايحه
جايه على البحيرة، تشوف القوارب وتعرف اذا كان فيه صيادين واللا
لا . . وبعدين قبل الشط بشويه تقف والا تضرب بالنار . وبعدين قارب
بيجي يفتش . انما دا صوت لنش ما فيش كلام .

وظل الصوت يهدر من بعيد ويقترب حتى رأينا في الضوء
الشاحب نقطة فاتحة تتحرك، وكانت تتحرك في نفس اتجاهنا .

وقال الرئيس بنبرة فيها انتصار قليل:

- مش قتللكم؟ دا لنش. وجاي من ناحية المنزلة كمان.
عارفشى رايع فين؟ ..

وابتسم حتى توهج نابه وأردف:

- على هناك برضك.

وسأله حلمي بسخرية:

- ايش عرفك؟

فأجاب:

- ايش عرفني؟! أنا عارف قوي.. وما تزعلش.. تلاقي فيه
ناس كمثلكو برضه.

وتغيرت لهجة حلمي واهتز طرباً وقال:

- كده.. طب تيجي ننادي عليهم يا جماعة.

وانهالت الأصوات تعترض. وقال الرئيس:

- خليهم يا محترم في حالهم واحنا في حالنا. خلي كل حي في
سكته.

وكان اللش أسرع منا، فسبقنا وأوغل في التقدم حتى تبهدد
صوته. وقال الرئيس وهو يضرب ركبته المثنية بيده:

- يا خويا إيه الحكاية؟ دا المراكب بطلت صيد. أنا واحد م

الناس ليلة مبارح وليلة أول وكل ليلة عمال أحول في ناس زيكو
كده. صفوف ورا صفوف عماله تروح على هناك. هو هناك ايه؟
مولد؟.

وقاطعته الخالة قاتلة حلمي :

- يا حبيبي شيل ايدك من على الجرح .. عمال نحس عليه ليه .
شيل يا خويا .

وجمدت يد حلمي وكأنا ضبط متلبسا .. ثم أنزل يده وهو
يداري ابتسامة خجل ويتمتم :

- لا .. دانا أصلي بس حاسس أني سخن ..

وما لبث أن اتثنى الى جاره قائلا :

- والنبي تحط ايدك تشوفني سخن والا لا .. يا أخي شوف .

ولم يترك الجار الا بعد أن أطاعه ووضع يده فوق جبهته .

وكنا قد دخلنا منطقة خالية من جزر الحشائش، والريح بدأت
تقوى حتى أن الرئيس ربط حبل القلع في مؤخرة القارب، وأمسك
بالدفة فقط، ولكنه ظل مقطب الملامح، عابس القسمات. صامتا لا
ينطق وكان أمرا كبير يحيره، أو حزنا مفاجئا داهمه، وكان جالسا ظهره
الينا. وظل على هذا الوضع لا يغيره، وكنا قد تعبنا من التفكير
والكلام وحتى من مجرد التحديق في السماء والماء، فسكتنا، وماتت
الحركة على ظهر المركب تماما حتى لم نعد ندري أهو واقف أو
يتحرك؟ وهل نحن نائمون أم مستيقظون؟

وانثنى الرئيس ناحيتنا فجأة حتى تهدلت اللاسة التي كان يتعمم بها من عنف الحركة، وقال:
- قولولي يا سيادنا . .

وقبل أن نسأل ماذا يريد أو نتحرك، قال بنبرات حاسمة وكأنما يتخذ قرارا خطيرا:
- انتو مش فداويه؟ . .

ولا نندري لماذا دقت قلوبنا بعنف، وكأنما كنا نسرق وباغتنا الرئيس .

وظللنا وقتنا طويلا صامتين، صمتاً حائراً مضطرباً، صمت العاجزين . وكان حلمي أول من تكلم، وقال:
- آمال احنا ايه؟ بنلعب؟!

وحدق الرئيس فينا مرة أخرى وقال:
- عليّ الطلاق بالتلاته انتم ما انتم فداوية .

وقال حلمي ساخرا مرتبكاً:
- أما حكاية! . . آمال رايحين نعمل ايه يا بلدينا؟
فأشار الرئيس بكفه وهو يقول:

- ما هو ده اللي محيرني . رايحين تعملوا ايه؟ . رايحين ليه؟ هو أنا عيل؟ . دانا افهمها وهي طايره . والناس بتبان . الواحد ياما شاف

فداوية وظباط وجن أحرر. انما الي محيرني انتورايحين ليه؟ ..

واستمر حلمي ساخرا مرتبكا:

- طيب .. رايحين ليه؟

فأجابه الرجل:

- أنت بتسألني انا .. اسألوا نفوسكم! ..

ولم نكن حتى تلك اللحظة قد سألنا أنفسنا أبداً أو ناقشناها. ولم يكن أحد قد سألنا. كل من علم أننا ذاهبون كان يتمنى لنا حظا سعيدا ولا يستغرب. بل ان كل من قابلناه أو رأيناه كان يتمنى أن يأتي هنا. وكنا نأخذ الأمانة على أنها شيء طبيعي لا غرابة فيه، كمن يقول: نفسي آكل، أو نفسي أشرب.

طوال صمتنا كانت الخالة ساكنة. ولكنها لما رأت الصمت طال قالت:

- يه .. آمال يا خويا رايحين ليه؟ ..

وتكلمنا كلنا في وقت واحد:

- انتي صدقتي الرئيس؟ إحنا فداويين صحيح ..

- أهو رايحين كده .. نتفرج ..

- أصل يا ستي فيه مقاومة شعبيه هناك .. و ..

- لنا قرايب يا خالة بس من بعيد رايحين نظمئن عليهم ..

ولم يدخل ما قاله كل منا في عقله، ولا في عقول الآخرين، ولا حتى في عقل الخاله.

ومضت بتحقيق مع حلمي وتسأل وتدقق عن الأسباب التي تدعونا للذهاب وحلمي يحاور ويداور، والريس يتسم ابتسامة من فقس الفولة، ونحن ساكتون..

أحيانا يفيق الانسان فيجد نفسه متجهها الى مكان معين، هكذا، بلا وعي أو تفكير. وقد جعلنا سؤال الريس نفيق. وحين أفقنا كان كل شيء أمامنا له سبب.. الخالة ذاهبة لترى ابنها، والقارب يتحرك لأن الريح تدفعه، وحلمي جرحته جبهته لأنه ارتطم بالصاري، أما نحن فلماذا نحن ذاهبون؟

رغما عنا رحنا نسأل أنفسنا، لأول مرة..

ولم نجد جوابا معقولا أو مقبولا. كل ما وجدناه كان احساسا كبيرا لا يترك لنا مجالا للتفكير أو السؤال. احساس ان شيئا هائلا مؤلما قد حدث هناك وأنا يجب أن نكون بالقرب مما حدث.

وانتهى نقاش الخالة مع حلمي حين ارتفع صوتها وكره غضب:

يـ بقى تموتوا ارواحكم كذب في نصب. لا انتم فداية ولا حرس ولا حاجة ورايجين تموتوا ارواحكو. انتو مالكوش أمهات؟ النبي يا ريس اعمل معروف رجعهم.. رجعهم اعمل معروف.. تكسب ثواب ما تخليهم يهوبوا على البر. الهي ما تحرق قلب أم على ولدها يا رب:

وقال الرئيس :

- ما تتعيش نفسك يا امي . . الي عقله في راسه يعرف خلاصه . لازم في نيتهم حاجه . خليفهم يا ستي كل حي في سكتته . وكان يقول الجزء الأخير وهو يقف ويتمغط ويتشاءب . ولكنه كف عن تناؤبه وقال بإرة اق كثير :
- بصوا . .

واتجهنا كلنا الى حيث أشار . . وهناك . . عند نهاية الأفق ، وفي ضوء الفجر المشبع بالبرودة ، كانت توجد غمامة كثيفة داكنة فيها أضواء قليلة صفراء معطوبة تكاد تدبل . .
وقال الرئيس :

- أه . . خلاص . . وصلنا .

وتركت الخالة ما كانت تهمس به لحلمي وقالت بفرحة منفجرة :

- والنبي ؟ والنبي يا خويا؟ الهى يخليك لشبابك ، الهى يسعدك .

وفي الحال انتفضت على وجناتنا عروق . وفي الحال مضت تدق ، شيئاً كدق الحرب ورحنا ننظر وقد تركزت أرواحنا في أبصارنا وامتلأت صدورنا بدفء مفاجئ ، ورغم احتجاجات الرئيس وصرخاته وتمايلات القارب وقفنا جميعاً ، وتكاتفنا لتساند وتأمل الغمامة الرمادية البعيدة ذات الأضواء . كانت رهيبه كثية كنموسية غامقة مسدلة على مجروح . مستحيل أن تكون ناموسية مسدلة على مجروح . لا بد

هناك أناس .. مصريون . لا يمكن أن يكونوا قد ماتوا كلهم أبدا .
ابدا .

انفعالات تفور وتنسكب، والرمادية تختفي لتأخذ مكانها سمرة .
أرض سمراء أوسع من السماء . والغمام ينقشع في أذهاننا ويبدو وجه
الشمس .. أجمل شمس . وعلى ضوئها تبدو ملايين السحنات التي
رأيناها طوال الطريق وكأنها وجه عملاق كبير مصنوع من ملايين
الوجوه، وعلى رأسه مليون طاقية، ومليون عمامة ولاسة وكوفية،
والعدو أيضا هناك وراء الغمام، عدو بشع كثير، ونحن القادمين
قبضه، لماذا لا يأتي كل الناس؟ لماذا لا يتحرك العملاق كله وينقض؟
متى يتحرك العملاق؟

وأقوى من أي انفعال وأعظم، كان شغفنا الخارق أن تنتهي
المسافة ونصل الى هناك، ونزيع لفافات الغمام لنرى ما تخفيه ..

وفطنا بعد وقت الى أن الرئيس يتكلم ويقول:

- لغاية هنا وما أقدر شي أتقل ولا خطوة .. الشط مليون مدافع
ودواهي . انتم بقى تتوكلوا على الله من الناحية دي البحيرة مش
غريقة .. دي لحد الركبة بس . تخوضوا من هنا على طول .. ح تطلعوا
جنب التربة . الصراحه كويسة وبذمتي وديني لو كنت أقدر كنت وديتكو
اغما العين بصيره واليد زي ما انتو عارفين .. اتوكلوا على الله .

ووقفنا برهة .. تلك البرهة التي تسبق العمل الخطير . الشاطيء
أماننا هادىء هدوء مرييا كهدهوء البركان قبل اندلاعه، والغمام كثيف

يجب كل شيء.. والخط الممتد أمامنا لا بد كله فوهات بنادق ومدافع، والسماء كأنها تدوي بأزير العشرات من قاذفات القنابل. بل سمعنا بأذاننا طلقات رصاص.. بعيدة ولها أنين.

وقفنا برهة وترددنا. تلك هي اللحظة الحاسمة.. اللحظة التي ادخرها كل منا ليختبر نفسه وشجاعته. هناك حيث كنا نعيش لم يكن أحد يستطيع أن يميز بين الجبان وبين الشجاع، فكلاهما متاح له أن يعيش. حتى الشخص نفسه لا يستطيع أن يدرك معدنه. في لحظة كذلك يعرف الإنسان نفسه، واللحظة حادة وفاصلة، وقلوبنا تدق، وعيوننا ترقب الشاطئ، وأجسادنا متقاربة، ونظرات مختلصة يصوبها الواحد الى نفسه والواحد الى جاره، والبرد قد اشتد فجأة، ولم نعد ندري أهو صادر من البحيرة أم من أعماقنا، والسماء تنبهرت وتبهت، وطيور النورس تنقض على سطح الماء ثم تعود وترتفع وفي منقارها سمكة، وتكاكي وتتقاتل، والصوت الذي تحدته هو الوحيد الذي يسمع.

وقطعت اللحظة ثممة الرئيس:

- اما وليه غريبه! طب تقول كتر خيرك..

ثم ارتفع صوته أكثر:

- مش من هنا يا ست.. خدي يميناك شويه لحسن الحجة اللي قدامك غريقة.

وأدركنا أن الخالة غادرتنا ومضت دون أن تفتح فمها بكلمة،
وكادت تصبح على مرمى البصر. نخوض الماء، وتمايل، ، وتتوقف
برهات، ولكنها لا تتلفت، ولا تكف.
وارتفعت أصواتنا:

- استني يا خاله . . استني شويه . .

وفوجئنا بها تفف وتستدير إلينا وتقول:

- لأ. . روحوا روحوا انتم بقى . مع السلامة. . والنبي ينوبك
ثواب ما تسيبهم يا ريس. . روحوا انتم بقى .

واستدارت على عجل، وأسرعت كالملهوفة الخائفة أن يفوتها
قطار، وأخذ سواد ثيابها يختلط بالضباب والشحوب، ويقترب من
رمادية الشاطئ.

ومرة أخرى دوت في آذاننا طلقات الرصاص البعيدة التي تصدر
عن مكان غامض.

ورغم كل ما كان يدور في رؤوسنا من خواطر واحتمالات،
فنحن لم ندر لماذا أسقطناها كلها فجأة، وركزنا انتباهنا وكأننا أطفال
سئج على يد حلمي التي كانت وقد عادت تتحسس مكان الجرح
بطريقة تلقائية غريزية لا تمت إلى عقل أو منطق.

وخبط الريس بكفه على خشب الصاري وقال:

- هيه يا سيادنا؟

... قاع المدينة

- ١ -

يكاد يكون من المستحيل ان يفقد الانسان ساعة يده . فهو اذا خلعها لا بد يضعها في مكان يثق فيه ، واذا ارتداها فلها جلدة أو «أستيك» يطبق على معصمه ولا يستطيع أمهر نشال أن يفكه . ولهذا فأغرب ما قد يحدث لانسان ان يقلب يده ليعرف الوقت فلا يجد ساعته في المكان الذي تعود أن يجدها فيه . هو حينئذ يقول لنفسه : لا بد اني نسيتها في مكان ما ، ولا بد أن يتذكر أين ، فالأمكنة التي يضطر الانسان لخلع ساعة يده فيها أمكنة محدودة جدا ومن السهل تذكرها . وهذا بالضبط ما حدث للقاضي . ففي الجلسة دفعه الملل من المرافعات الطويلة ومناكفات المحامين إلى النظر في ساعته ، وفوجيء حين لم يجدها . وبينما كان محامي المدعي عليه يسوق دفعا فرعيا كان عقل الأستاذ عبد الله القاضي يعمل بسرعة فائقة ليتذكر أين يمكن أن يكون قد نسي الساعة . وخطر له احتمال أكيد . أن يكون قد تركها في عجلة الصباح فوق التسيريحة في حجرة النوم ، ولكنه لم يطمئن الى الخاطر وقرر أن يسأل فرغلي الحاجب . وسؤال فرغلي هو أول ما يتبادر

الى ذهنه حين ينقصه شيء أو يحتاج الى شيء أو يشكو من شيء. اذا لم يجد القلم ففرغلي هو المسئول، واذا تاه دوسيه فهاتوا فرغلي، واذا كان لديه صداع فأول من يعلم هو فرغلي. ورفع الجلسة أمر سهل. . كان محامي المدعي عليه لا يزال يفصل في الدفع الفرعي. وحدث أن توقف ليلتلع ريقه وفي الحال قام القاضي واقفا وانتهز الفرصة وقال: رفعت الجلسة. وانتفض كل من بالمحكمة واقفا بينما مضى المحامون يتهايمسون ويتساءلون فيما بينهم عما يمكن ان يكون السبب، وهل لبلاغة محامي المدعي عليه علاقة برفع الجلسة يا ترى، أم أن المحكمة أرادت أن تستشير قانون عقد العمل؟

وحين أصبح الأستاذ عبد الله في حجرته كانت يده تدق الجرس. وجاء فرغلي قبل أن يدق الجرس. . ورمقه القاضي فوجده كالعادة منتصباً أمامه في أدب وقد صنع من أعوامه الخمسين عاموداً حياً لا انحراف فيه ولا اعوجاج، فكرشه قد شفته تأدباً، وطربوشه قد مال الى اليمين في اتزان وقور حتى أصبح الزر فوق الأذن اليميني تماماً وأطرافه تداعب أعلا الأذن، والوجه جامد كله احترام، والرأس معوج قليلاً الى أمام لتستطيع الأذن أن تلتقط أدق الهمسات، واليدان مضمومتا القبضات متحفزتان لأية إشارة. وليس هذا كل شيء، فأفندم تعقب الوقفة، وتخرج كل أفندم مثل الأخريات فيها خناقة تدل على التواضع، وخفوت يدل على الاستكانة، وقصر يدل على استعداد تام للقيام بأية مهمة.

- أفندم. .

ورمقه القاضي وتعجب . وسأله عن الساعة .

وانتفضت فتل زر الطربوش واصطكت بجداره الأحمر في عنف ،
وفرغلي ينفي نفيا أنه رأى الساعة أو له بها أي علم . وكان الأستاذ عبد
الله يتوقع اجابته تلك اذ إن فرغلي لا يمكن أن يكون قد رأى الساعة
أو له بها علم . كل ما في الأمر أنه كان لا بد أن يسأله حتى ولو ليقول
لا .

وأيقن حينئذ أنه لا بد قد نسيها فوق التسيريحة في حجرة النوم .
وحين عاد الى البيت كان أول ما فعله أن ألقى على التسيريحة نظرة
خاطفة . وانقبض حين لم يجد الساعة فوقها ، وأيقن تماما أن لا بد قد
ضاعت أو سرقت . من أين جاءه ذلك اليقين ؟ لم يكن يدري . لعله
تشاؤم كامن في النفس لا يبرز الا في أوقات مثل تلك ! لعله وهم ! ومع
هذا انطلق يبحث عنها في الأدراج والكمودينو والدولاب وتحت
المكتب . ولعل مبعث حماسه للبحث كان فقط لتكذيب ذلك اليقين
المفاجيء الذي انتابه وأكد له أن الساعة قد ضاعت ما في ذلك أدنى
ريب .

وقلب الأستاذ عبد الله البيت رأسا على عقب دون أن يعثر
للساعة على أثر . وجلس .

كان اثناء عملية البحث قد خلع بنطلونه وسترته وبقي بالقميص
والخذاء والجورب ليستطيع الانحناء والنظر تحت الفراش والكراسي ،
وأكياس المخدات ، وكل تلك الأمكنة التي ما أن يضع من الانسان

شيء حتى يتبادر إلى ذهنه على الدوام انها لا بد تحت كنبه أو كرسي أو فوق دولاب. وفي الغالب لا يجد في تلك الأماكن سوى أكوام الغبار والعناكب. ومع هذا كلما ضاع منه شيء بادر إليها، وكأنها مخازن أمل يبقياها الانسان ليلجأ إليها حين يخاف أن يستحوز عليه اليأس.

جلس الاستاذ عبد الله على الكرسي، ووضع ساقا عارية بيضاء فوق ساق، وراح يفكر ويستغرب.

وانسان مثل الاستاذ عبد الله تعترضه مشاكل من كل نوع ولون، ولكن أن تضيع ساعة يده، مشكلة غريبة ربما لا تحدث - اذا حدثت - الا مرة واحدة طوال حياته.

وكان للمشكلة وجهان. فمن ناحية كان ضياع الساعة حدثا ضخما يطرُق حياته التي أصبحت مملة ورتيبة. ثم أن تختفي الساعة من البيت، بل من حجرة لها جدران أربعة صماء شيء يجعل من المشكلة لغزا كتمارين الهندسة المستعصية يحلو له أن يحله ويجهد فيه عقله.

أما الوجه الآخر للمشكلة فهو الوجه العادي لها، اذ كان منقبضا لضياح الساعة لا لأنها أثرية أو ذات قيمة أو هدية حبيب أو شيئا من هذا القبيل. أبدا، كانت ساعة عادية جدا لا ذهب فيها ولا بلاتين، (أنكر) ١٥ حجرا كان قد اشتراها قبل الحرب وقضت معه سني الحرب وبقيت ملازمة له بعدها، بقيت كالشريك المخالف كل يوم لها حادث، زميلك ومسح وزجاج وتروس، حتى صرف عليها ثمنها وزهق منها وأصبح منظرها يثير. لم تكن ثمينة اذن، ولكنه ما كاد يوقن أنها

انها ضاعت حتى انقبض . ان الانسان لا يعرف قيمة الشيء الا اذا فقدته . طالما هو معه فهو معتاد عليه بل قد يكون ضيقا به ، ولكنه ما يكاد يضيع حتى يحس الانسان وكأن جدارا في نفسه قد انهار ، وتبدأ حينئذ قيمة الشيء الحقيقية تأخذ مكانها في نظره .

كان منقبضا . لو كان هو الذي ألقاها بيده من النافذة لما أحس بلمحة أسف ، ولكن ضياعها هكذا عنوة ، ورغما عنه ، شيء يستثير الضيق والتحدي .

كيف تضيع الساعة من فوق التسريحة بكل بساطة؟

القيمة المادية هنا لم تكن ذات وزن . فالأستاذ عبد الله على كل حال ، لا يمكن يؤثر في مجرى حياته ضياع ساعة . هو رجل مبسوط ، بل كان طول عمره مبسوطا . ولد مبسوطا ، وتعلم مبسوطا ، حتى وهو طالب في كلية الحقوق كانت له عربة «توبولينو» صغيرة ، وكان والده المرحوم على قيد الحياة ، وكان ينفق عن سعة وكان وكان .

انه قاض ، ولم يتزوج بعد ومع هذا فشقتة فاخرة الأثاث ، وحياته مليئة بالأرقام ٣٤٤٥ ، ٢٩٩٨٧٦ ، ١٠٠٣١ ، ٦٦ ، ٨٣٤٥ وهي أرقام عربته وثلاجته وبوليصة التأمين على حياته ، وشقته ورقم حسابه في البنك .

ولا يتسرع أحد ويخمن أن الأستاذ عبد الله فاحش الغنى . هو رجل متوسط الحال ، بل يكاد يكون متوسطا في كل شيء . فهو ليس طويلا ، ولا يمكن أن تقول إنه قصير ، وكذلك لا هو بالرفيع أو التخين ، ولا بالأبيض أو الأسمر . باختصار اذا أخذنا مائة رجل من جميع أنحاء

العالم وأخذنا متوسطهم في الطول والوزن والبشرة لوجدنا أمامنا الأستاذ عبد الله . . حتى الشاي ، تقول مدام شندي وهي توزع السكر: كام حنة يا عبد الله بك؟ وفي العادة تستدرك نفسها وتقول: آه . . أنا عارفة . . انت بتحبه مضبوط . . حنة ونص . . مش كده؟ ويتسم هو حينئذ ويقول وهو يستعد «لترميت» في البريدج: انتي عارفة يا مدام . . أنا رجل معتدل . ويضحك الموجودون وكأن الأمر نكتة، فنكت القاضي هي الأخرى دائها مضبوطة ومعتدلة الحلاوة .

وليس معنى ذكر البريدج ومدام شندي انه مغرم ببيتها أو مدمن على الذهاب اليه . ان زيارته لعائلة شندي ليست بالكثيرة التي تضايق ولا بالقليلة التي تجلب العتب . انه ايضا في هذا «جتلمان» كما هو في أي مجال آخر . . جتلمان له ابتسامة دائمة يتحدث بها الى الغرباء، ولا يبدأ في ازالة ما بينه وبينهم من كلفة الا اذا بدأوه هم . وحين يتحدث يتحدث في بطاء قليل، وحديثه دائها متوسط العمق فهو لا يحيط بأي موضوع احاطة كاملة، ومع ذلك لا يترك موضوعا دون تعليق اذ لا بد أن يقول شيئا، ولو كلمة، ولو نوعا من جبر الخاطر.

وبمثل ما نكون تعاملنا الحياة، والحياة تعامل الأستاذ عبد الله في اعتدال هي الأخرى، فلم ترفعه مرة فجأة ولم تهو به، فمن الكلية الى النيابة الى المحكمة كما قدر لنفسه، وكما قدر له أبوه من قبله، كالقطار الذي تركبه في القاهرة وأنت متأكد تماما أنه بعد قليل سيكون في بنها ثم في الاسكندرية .

أجل! ماذا يفعل ضياع الساعة في حياته؟

كأن المسألة من التعقيد بحيث يستدعى حلها سيجارة. والأستاذ عبد الله لا يدخن ولكن لديه علبة سجائر يحتفظ بها في درج المكتب ليغزم منها على الزوار. وفي أحيان قليلة يدخن، مرة كل شهر مثلاً أو كل شهرين. قام ليتناول سيجارة، وعاد إلى جلسته وإلى ساقه الموضوعية فوق ساق. واكتشف بحركته تلك أنه عاري أو يكاد، وأسرع يرتدي البيجامة قبل أن يراه أحد، مع أنه لم يكن في الشقة أحد، فهو يقطن بمفرده اذ هو أعزب. كان قد حدد لنفسه سن الخامسة والثلاثين ليتزوج، وكان في الثانية والثلاثين أي باقي على انقضاء الحكم الذي أصدره على نفسه ثلاث سنوات. أما لماذا حدد الخامسة والثلاثين بالذات ليتزوج فالأمر لا سر فيه ولا يحزنون، اذ هو قدر أنه سيعيش سبعين عاماً، ربما لأن والده توفي وهو في السبعين، وأمه في الثامنة والستين، وجده في الخامسة والسبعين، ربما هذا، وربما قرر أنه سيعيش حتى السبعين عاماً لسبب لا يدريه أحد. ولهذا قرر أن يتزوج في منتصف عمره تماماً. وهو ليس أبلاً كما قد يظن البعض، اذ ان كثيراً من الناس يقررون أشياء خطيرة في حياتهم اعتماداً على أشياء غامضة لا أساس لها في عرف أو عقل مثل تلك.

دخل الأستاذ عبد الله في البيجامة، وعاد يجلس على الكرسي الهزاز الموضوع بجوار الراديو الضخم. جلس وهو قد استبعد نهائياً أن يكون جعفري هو الذي أخذ الساعة، فهو قد يشك في نفسه ولكنه لا يستطيع الشك في جعفري أبداً. هو خادم العائلة أبا عن جد، بل يقولون ان أحد أسلافه مات وهو عائد من القرن بصينية «حمام

بالفريك» التي كانت طعام جده المختار. وضمن ما ورثه الأستاذ عبد الله كان جعفري. وهو انسان طيب جدا، ساذج جدا له ولاء الكلب واخلاصه. هو من أولئك الناس الذين لم يكتفوا بالقناعة بمصيرهم بل عبدوا ذلك المصير ويجلوه. كلمة «سيدي» عندهم لها قداسة ووقع، وحاجة السيد كمحاجة الله أرفع من أن تمتد إليها يد. كان معه في بيت المنيرة وحين انتقل الى سكنه الحالي في شارع الجبلالية انتقل معه. وكان يقيم في الشقة، وكان هذا سبب ضيق الأستاذ عبد الله منه.

لم تكن هناك أسباب واضحة لهذا الضيق. . فجعفري أمين نظيف دقيق لا يكاد يتلفظ طوال اليوم بكلمة، والأستاذ عبد الله يحب الصمت، وإذا كان هناك كلام فليكن باعتدال، وليكن أيضا في المليون. تضايق منه وكان ذلك من عامين، لأن جعفري كان حجر عثرة، اذ هو ينجعل منه وهو خادم العائلة الذي شهد أباه وشهد أمه والذي رآه وهو طفل وحضر كل ما أحرزته العائلة من أمجاد، فلم يكن من اللائق، ولا مما يرضي مزاج الأستاذ عبد الله الحساس أن يدخل عليه مرة مثلا ومعه فتاة. وكان الوقت قد حان، وسنوات العمر تمضي كالرياح، والثلاثين قد ولت، وحياة العزوبة تتسرب من بين يديه دون ان يفيد منها شيئا. والأستاذ عبد الله كان مستقيما، لا لأن غير الاستقامة حرام، أو لأن هذه «الأشياء» لا تصح، أو أو الخ، ولكن لأنه ذات مرة سوداء اشترك مع طالب زميله في الكلية، والتقطا فتاة من الشارع في عربة زميله الكبيرة وأخذها الى طريق الاسكندرية. وروع

عبد الله ثاني يوم بأعراض خطيرة، وصحيح أنه عولج وشفي تماما ولكنه أقسم بينه وبين نفسه أنه لن يقرب امرأة أبدا الا اذا تزوج. كانت اية امرأة في نظره عبارة عن ميكروب يرتدي جوارب نيلون ويضع على شفثيه روج ويلدغ كل من يقترب منه. وكان ممكنا أن يدفعه هذا للزواج، ولكنه كان قد قرر منتصف العمر ليفعل هذا. وظلت الخطة سارية بنجاح تام الى ما بعد الثلاثين وقد بدأت الخامسة تطل برأسها. وهنا ثار الأستاذ عبد الله على نفسه وحياته وصمم أن يودع - كما يقولون - حياة العزوبية. من أجل هذا حث جعفري على الزواج، بل ساعده، ولما تزوج أخبره أنه لا يريد طوال اليوم، عليه فقط أن يأتي في الصباح ويغادر الشقة بعد أن يعد له الغداء. وكل هذا ليخلوله المسكن ويصبح حرا يستطيع ان يودع عزوبيته كما يشاء.

وبرغم أن الشقة خلت وذاق حلاوة الوحدة التي كان ينشدها، وانزاح جعفري بوجوده الدائم، الا أنها بقيت خالية الا منه، فقد كان يظن أنه حالما يذهب عنه الرجل ستمتلئ الشقة بالنساء، كيف؟ لم يتعب نفسه ويفكر. ولكنه اضطر الى التفكير، فهو قد أمضى فترة طويلة من شبابه دون احتكاك بالنساء حتى تغلبت رغبته العارمة آخر الأمر، ونسي حكاية الميكروب، وقبل الأمر شكلا وأصبح على استعداد للمجازفة، ولكن أين المرأة؟ عزلته طوال تلك السنين كانت قد حالت بينه وبين الطرق التي تقبل منها النساء، ثم إنه كان قد أصبح قاضيا في تلك المدة. صحيح أنه شاب لا يزال صغير السن نوعا، ولكنه قاض عليه «أو هكذا خيل اليه» أن يحافظ على كرامة المنصب، ولا يدع أحدا

يأخذ عليه مأخذاً أو يضبطه في موقف حرج . ثم انه لا يستطيع أن يفضي برغبته لأحد، وكل أصدقائه ومعارفه رجال كبار محترمون، مستشار في مجلس الدولة، وكيل نيابة درجة أولى، محام على الأقل من محامي النقض والابرام، أساتذة في الجامعة، المنهراوي بك صاحب محلات الموبيليا الذائعة الصيت، صلاح شوشة ابن اعتماد هانم . . . أناس لا يمكن أصلاً التحدث معهم في أمر كهذا . حتى زملاؤه من دفعته، والذين كانت عربته الصغيرة سبباً من الأسباب التي منعتهم أن يعرف منهم سوى عدد قليل محدود، حتى هؤلاء الزملاء تفرقوا وتزوجوا وأصبح لهم أولاد، وإذا قابل أحدهم تبدو المقابلة أول الأمر عاصفة ذات تهليل وعناق وسلامات، وبعد خمس دقائق يكتشفان أن كل ما بينهما من كلام قد انتهى ويصبح الحديث مجرد تردد، أجوف: . . . والله زمان . . . وحشتنا . . . فين أيامك؟ أو عادة مكررة لذكريات تاريخية قديمة عن مدرس كانت له طباع شاذة.

هذا عن الرجال . .

أما النساء فكان مقطوع الصلة بهن تماماً . كانت هناك قريباته . . بعضهن كان لا يطيقهن شكلاً ولا موضوعاً، وبعضهن جميلات كان يخاف منهن، فهن أما متزوجات أو طامحات في الزواج، والعين كانت عليه وهو العريس «السقع» الذي يسيل له اللعاب . غير أنه كان قد صمم تصميماً لا نقض فيه ولا إبرام إلا يتزوج من قريباته أبداً ولو قطعوا رأسه . أما لماذا؟ فهو نفسه لا يدري سبباً لهذا التصميم . كانت أية محاولة للتقرب منهن ممكن أن تؤخذ

اذن على محمل الاستحسان وقد تنتهي بورطة ودبلة، وقد تنتهي بزواج. أما غير قريباته فكانت هناك مدام شندي، أرملة في الخمسين مولعة بالبريدج الى حد الجنون، ولها أصدقاء من كبار رجال الدولة، ولها صالون ومجلس وتجيد الحديث وإدارته، وتجيد الابتسامات الفاهمة والاصغاء الى المتاعب. سمراء غامقة السمار تكاد تكون صعيدية من قلب الصعيد وتقول عن نفسها انها تركية، وكثيرا ما تزورها نساء متزوجات، ولكن كل منهن شخصية قائمة بذاتها. وصحيح أنه يتحدث معهن كثيرا ويناقش شتى الموضوعات ويعلق أحيانا على حذاء أنيق، أو تسريحة جديدة، ويقص عليهن طرائف مما يحدث له مع المتهمين والمفتشين والمحامين، ولكن حديث مثل هذا شيء، وحديث خاص ينتهي بلمسة أو بقبلة شيء مختلف تماما. فهو ليس وسيما، وهو يعرف أن هذا غير مهم في الرجال، ولكنه يعرف أيضا أن وجهه كالصفحة البيضاء لا معالم بارزة فيه، ملامحه عادية جدا ليست جميلة أو قبيحة، ولا تثير إعجابا ولا تبعث على الاشمئزاز ولا يحس لها الناظر بأي انفعال. ليته كان قبيحا! كثيرا ما يتمنى لو كان مشوها حتى . . ثم إنه عالم تماما بخفة دمه ولباقة، فهو يرى الناس يتحدثون، يأتون في كلامهم بأشياء تبرز وتضيء الكلام، وتضيء وجه السامع بابتسامة أو ضحكة أو لمعة أسي. وهو ينصت الى أناس وهم يحكون فيجد لحكاياتهم وقعا لذيذا وكأن كلامهم محلى بالتوابل وفاتحات الشهية. وكان أحيانا ينصت الى نفسه وهو يتحدث ويحاول أن يجد شيئا، شيئا واحدا فقط، كلمة ذكية أو إشارة

مليحة، أو حتى طريقة طريفة لرواية ما يقول، فلا يجد. كلامه مجرد كلام. يسمعه الناس اكراماً له، واکراماً للفظه القاضي اللاصقة به. لا يعني هذا أنه كان عيباً إذ إنه لم تخنه الكلمة أبداً. ليتها خانته مرة اذن لحدث لكلامه شيء غير عادي.

لهذا فحديث خاص الى واحدة من السيدات في صالون مدام شندي شيء لم يخطر له على بال، خاصة وهو لم يتعود أمثال ذلك الحديث، ولم يجرب مرة واحدة ايقاع امرأة. وكان طبيعياً اذن أن يبدو في الصالون مؤدبا خجولاً يملؤه الرعب من النساء المثبات من حوله.

وما أن ذهب جعفر وبدأ يثور على نفسه ويكبت الثورة أحيانا ويطلقها، حتى بدأ يتقدم ثم يتأخر ويعود الى الاقدام. وشمته واحدة مرة، وقبلت واحدة أخرى دعوة إلى السينما، ورحبت بسهرة في الاوبرج، ولكن ما كاد يلمس يدها حتى انسحبت وتركته يكاد يغمى عليه. وأخيرا دفعته إلى تجربة مدام شندي نفسها. ولم يجد لديها حماساً كثيراً، وكذلك لم يجد معارضة تذكر، وكانت استجابتها له فيها روتين وتعود، وعاملته كأنه طفل كبير شفي. وظل بعدها ثلاثة أيام يكظم خجله واشمئزازه، ولم ينس أبداً أنها في الخمسينات، وأنه فعل هذا وهو قاض.

والانسان حين يفشل لا يسكت. . انه لا يكف عن المحاولة أبداً وبمضي الوقت قد يصادفه النجاح. وهكذا استطاع أن يستصحب

نانا الى الشقة بعد مضي ستة أشهر على خروجه معها .

والخروج مع فتاة مثلها كان بالنسبة اليه أمرا صعبا يؤديه كالضريبة الباهظة المفروضة عليه، فهو لا بد أن يختار مكانا بعيدا عن القاهرة، ولا بد أن يذهب اليه قبلها ليتأكد أن واحدا من معارفه أو أصدقائه أو المحامين لا يعرفه، ثم يستصحبها اليه، ويظل في قلق عظيم وهو جالس معها، ولا ينزاح الهم عن صدره الا حين تهبط من عربته بعدما تقرر فيه قائلته: باي باي .

وأخيرا جاءت معه وكان نصرا أن تجيء، ومع هذا لم يستطع معها الكثير، فهي فتاة وهو خجول، ولولا أنها لا تعد جميلة لما كانت قد رُضيت بالمجيء . . ودعك من الهدايا والتحف . وهكذا ظلت العلاقة بينهما في أخذ ورد حتى ذهب الخجل وقل العناد، وبدأت تنمو عواطف مبهمة تجاهها حتى فكر مرة أن يخطبها فهي بنت ناس، ولطيفة، وتحب القانون، ولكن مسألة قبولها المجيء معه كانت تقض مضجعه وتجعله يرفض مبدأ الخطوبة رفضا باتا . غير أنه ما لبث أن صرف النظر عن التفكير في الخطوبة والزواج، فقد استطاعت علاقته بنانا أن تعلمه أشياء كثيرة، ويكفي أن تعرف فتاة واحدة لتدرك منها الكثير من أسرار الفتيات أجمعين، وتصبح جسورا بعض الشيء، وتستطيع اذا آن الأوان أن تنني على ذوق صاحبة لها، ثم تنتقل من صديقة الى صديقة، وتتعلم أكثر، وتنمو لديك الخبرة، وتستطيع أن تجيد نوع الكلام الذي تحبه الفتيات، وتعرف دقائق الفروق بين لون فستان ولون فستان وكشكشة وكشكشة، وأين

يكن السكس آييل في نظرات جريجوري بيك . وتستخدم خبرتك تلك في الأحاديث، ثم لا يعدم الأمر بعض القفشات والنكات والكلمات ذات المعاني، وابتسامات مطعمة بدعوات، ونظرات آخر ما يقصد بها أنها نظرات، وإذا بك قد وصلت، وإذا بالأستاذ عبد الله يصبح لديه ثلاث أو أربع فتيات . . واحدة لدعوات السينما، وواحدة كانت تعلمه الرقص أو على الأصح تجدد معلوماته عن الرقص، فأخته كانت قد علمته وهو لا يزال «صبيا»، وواحدة تأتي وأخرى تذهب، حتى إنه ذهب إلى كباريه مرة وتعرف هناك بشلة، فوجيء أن بينها أكثر من واحد من الأسرة القضائية، وتعرف براقصة أو على الأصح هي التي عرفته بنفسها، وجلست معه وفتح لها زجاجة «السينالكو» ذات الثمن الغالي، وفتح المحفظة وأصرت هي وهما عائدان متشيان أن تفتح بنفسها باب الشقة .

مستحيل أن يكون جعفري هو الذي أخذ الساعة .

لا بد انها شهرت .

كان احساس الأستاذ عبد الله بالفرحة لأنه وجد موضوعا عجيبا يملأ حياته يكاد يطفى على أي احساس آخر، أحس أيضا أنه لا يستطيع السكوت على هذا الموضوع الكبير وحصره في نطاق تفكيره الخاص. أحس أنه لا بد من مناقشة ما يدور في رأسه من خواطر وافتراضات مع أحد، لا بد من شرف، وقام الى التليفون وطلب نقابة الممثلين .

وكان من يراه وهو يدير القرص والحماس يطل من عينيه، يحسبه يود مفاجأة صديق بخبر مثير أو أنباء سارة. كان الخط مشغولا، ومع هذا ظل يدير القرص وحماسه لا يفتر. انه لن يجد في العالم كله من يصلح لمناقشة هذا الموضوع معه سوى شرف، ولا بد أن شرف في نقابة الممثلين ولا بد أن يعثر عليه. . هذا اللعين شرف صديقه مذ كانوا يقطنون في بيت العائلة في المنيرة. شرف أيضا كان يقطن هناك ولكنه كان من عائلاتها الفقيرة، ولهذا ولأمر ما كان الأستاذ عبد الله لا يحس أمامه بأي تعقيد ولا يخجل أن يقص عليه أدق خلجات نفسه دون أن يحس بكرامته تهان أو بتأنيب ضمير. كان

يقول له ما لا يستطيع قوله لأصدقائه الأغنياء وأقاربه، ولهذا فقد كان يحبه أيضاً أكثر من كل أصدقائه الأغنياء وأقاربه. هذا برغم أنه لا يحتل مثله أحد مناصب الدولة المهمة أو غير المهمة، فقد ترك المدارس وعمل في عشرات الأعمال، ثم احترف التمثيل الذي كان يهواه دائما وأصبح ممثلاً في الاذاعة وأدواره كلها قصيرة، وأطول دور كان ثلاث كلمات، ورغم ذلك فهو يعتد بنفسه كفنّان اعتداداً كبيراً، وله آراء في الفن والمسرح والحياة، ومكانه الدائم في نقابة الممثلين.

ورغم ما كان بين الأستاذ عبد الله وبين شرف من حب فقد كانت العلاقة بينهما لها طابع غريب نوعاً. الأستاذ عبد الله لديه مشاغل كثيرة، ولكن أحياناً تتبخر كل مشغوليّاته ولا يجد ما يعمل به وتصيح الدنيا خاوية مملوءة بفرّاغ متثائب لا نهاية له. حينئذ يأتي دور شرف. يدق التليفون في نقابة الممثلين وهو التليفون الوحيد الذي يدق ويطلب شرف الدين: تعال يا شفشف. هكذا كان يناديه الأستاذ عبد الله. ودون أن يسأل شرف من، يأخذ طريقه الى شارع الجبلية أحياناً راكباً تراماً، وأغلب الأحيان سائراً على قدميه. هناك كان يجد شقة أنيقة عالية مطلّة على النيل، وماء مثلجاً وطعاماً وعلباً محفوظة، وأحياناً زجاجات بيرة، وكرسيا مريحاً يسترخي عليه ليؤدي دوره.

ودوره كان دور المستمع. كان ينصت لصديقه عبد الله وهو يتحدث. وإذا تحدث شرف مع عبد الله فلا بد أن يكون الحديث كله عن عبد الله. وأشخاص قليلون جداً هم الذين يستطيع الإنسان أن

يحدثهم طويلا عن نفسه دون أن يفكروا في قطع حديثه ليتكلموا هم عن أنفسهم، وكان شرف من هؤلاء . كان عبد الله يشرق ويغرب ويسرد أدق الخواطر والأشياء التي لا تدور الا بينه وبين نفسه، وشرف ينصت ولا يمل، وكان فنانا في انصاته . فهو لا ينصت وهو ضيق بالحديث، أو متعجلا لنهايته، ولا وهو فقط متابعا الكلام يهز رأسه وينفخ دخان سيجارته . أبدا حين ينصت بحماس، وتبرق عيناه حين يتأزم الموقف، ويتسم حين يحتاج الحديث الى ابتسام، ويقهقه حين يستدعي الموقف قهقهة، وتحس وأنت تتحدث إليه أنك تحدث انساناً يهمه أمرك، ويحفل بكلامك مهما كان، احتفالا كبيرا .

وأحيانا يعثر الانسان على مستمع كهذا تماما، ولكنه يكون عالما أنه ينصت ويتحمس وينفعل مجاملة له لا أكثر ولا أقل، غير أن شرف لم يكن من هؤلاء، كان حماسه حقيقيا، ومشاركته في الحديث مشاركة ايجابية، فهو يستمهل ويستوقف ويناقش ويسأل عن تفاصيل أخرى .

ولا بد أن لحظات حديث الانسان عن نفسه تمتعه ويسعد بها، خاصة اذا كان لهذا الحديث مستمع كهذا . لا بد . . لأن عبد الله كان يحس براحة عظمى بعد هذه الأحاديث . ففي حياته العادية كانت تمر عليه أوقات كثيرة لا يرى نفسه فيها سوى انساناً تافهاً لا قيمة له ولا وجود، خاصة حين يجد نفسه في مجتمع غاص، والجميع يتكلمون بانطلاق وانتعاش وهو وحده الذي يخرج كلامه باهتاً معقماً كالماء المقطر لا طعم له ولا رائحة . كان في جلساته مع شرف ينطلق ويحس بكلامه يخرج موزوناً له ثقل، وفيه حكمة غريبة عليه،

وبلاغة.. حتى فكر عبد الله ذات مرة أن يشتري جهاز تسجيل ليسجل به أحاديثه تلك ويعود ليستمع إليها بعد ذهاب شرف، ويسمعها لأصدقائه ومعارفه، ويربهم أنه ليس به عيب وإنما العيب فيهم وفي مجالسهم. في حديثه مع شرف كان ينطلق وينطق بأشياء معجزة، وإلا لماذا كان يقوم شرف ويقعد لدى سماعها ويطلب منه اعادتها كما يطلب المستمعون من المقرء إعادة التلاوة وقد بلغ بهم الاستحسان مداه.

كان يبلور في أحاديثه تلك كل فلسفته في الحياة وآرائه في الناس. والانسان اذا وجد في حضرة الجماعة وكان عليه أن يدلي برأي في موضوع فإنه في العادة يقول ما تواضع الناس على قوله. يفعل هذا احتراما للجماعة أو خوفا منها، أو استسهالا، فقد يجره رأي مخالف الى نقاش قد يخرج منه مهزوما مهيض الجناح. قليلون فقط هم الذين يملكون آراء شخصية، وأقل منهم أولئك الذين يستطيعون الجهر بآرائهم تلك دون وجل في حضرة الناس، ونادرون هم أولئك الجريثون الذين يستطيعون الذود عن آرائهم إذا هوجمت، وأقل القليلين هو من تتفق له الجرأة والمنطق فيستطيع ليس فقط أن يعبر عن رأيه ويدافع عنه اذا هوجم، ولكنه يستطيع فوق هذا اقناع الناس به. نادرون جدا أولئك الناس، ولكن هذا لا ينفي الحقيقة، والحقيقة أن كلا منا حكيم في حدود، ولكن ليس كل منا قادرا على التبشير بحكمته.

وكان عبد الله كأي انسان له حكمة استخلصها من تجاربه وما

مارسه، وكان يغلق عليها نفسه ولا يفتحها إلا في حضرة شرف، ولا يبشر بها إلا له وحده.

والغريب أنه لم يكن يؤمن بحكمته تلك. كان شرف هو الوحيد الذي يقتنع بكل آرائه، أما عبد الله فكان لا يقتنع بها ولا ينفذها ويفضل أن يتبع آراء الآخرين، فأن نعتنق آراءنا عملية في حاجة إلى جرأة هي الأخرى.

ودخل شرف..

كان طويلاً نحيلاً له شعر مهوش وملامح طويلة ممطوطة، تحس إذا ما رأيته أنه لا بد «فنان» من الفنانين، له ابتسامة خجولة يحتار دائماً أين يداريها. وإذا ابتسم برز له ضب صغير لا يكاد يلحظه أحد.

وكعادته توجه إلى المطبخ فور دخوله وعاد ومعه كوب من الماء المثلج ظل يرتشفه على قطرات، ثم خلع جاكته وعلقها على المسند وتمدد. ولم ينس وهو يمدد نفسه أن يضع بواقاً فوق ساق ويتناول سيجارة من العلبة التي قدمها له عبد الله.

ظل القاضي يراقبه حتى انتهى من عملية جلوسه ونظراته ترتجف باللهفة، وكأنما يختزن في جوفه بركاناً. وكان واضحاً أن شرف قد أدرك هذا وتعمد المغالاة، ولكنه نطق أخيراً وقال وهو يحدق في ملامح عبد الله ويحاول أن يستشف الأمر.. وهل هو احساس بالوحدة هذه المرة، أم حب جديد، أم رأي طازج عن نشأة الجريمة بين الأحداث.

- ما وراؤك يا همام؟

فقال الأستاذ عبد الله :

- حصلت أبداع حاجة النهارده .

- خدت الدرجة الرابعه .

- لأ . . شهرت سرقت الساعة . .

- شهرت مين . . الرقاصة . .

لم تكن هي الرقاصة، ولا صديقة أخرى لنا، ولا تمت بصلة الى هذا الصنف من النساء كله . . أنها هدية فرغلي الحاجب .

وبدأت المسألة في ثورة من ثورات الأستاذ عبد الله على نفسه، أو بمعنى أدق على صديقاته . لم يكن يستريح أبدا لعلاقاته بهن . كان هناك شيء ما يحد من سلوكه أمامهن، كان لا يستطيع أن يطلق نفسه على سجيتها أمام نانا أو غيرها . لا بد أن يكون مؤدبا ولا بد من الرقة والكلمة الحلوة ولا بد من ابتسامة لا تذبل يضعها في عروة فمه طوال الوقت الذي يقضيه مع الواحدة منهن . كان من فرط احساسه بقله مواهبه أمامهن يحاول قدر طاقته أن يكون خفيفا كالنسمة وأن يرضيهن ما أمكنه . ولم تحاول واحدة منهن ارضاءه أبدا وان حاولت، كان يحس أنها تفعل ذلك لسبب، وأن وراء الارضاء ما وراءه .

وفكر مرة في شيء جديد على حياته . لم لا

واصطنع الديمقراطية . ووقف فرغلي الحاجب أمامه في حجرته قبل الجلسة، وظل هو يشكو من أزمة الخدم وكيف أن الرجال لصوص والنساء العواجيز متعبات ولا يستطعن العمل . وكان فرغلي لا

يكف عن احناء رأسه علامة الموافقة على كل كلمة ينطقها القاضي، بل أحيانا يحني جسده كله ليدل على الموافقة التامة. وفي يوم آخر بدا على القاضي الضيق الشديد وادعي أمام فرغلي أنه طرد الخادم الجديد. وأبدى فرغلي أسفه البالغ وراح يصب اللعنات على الخدم أجمعين، وعلى ذلك الخادم المطرود بالذات وكأنه كان يعرفه ويعلم أنه جدير بكل تلك اللعنات.

وفي المرة الثالثة قالها القاضي صراحة، وسأل فرغلي أن يعرف امرأة أمينة مخلصنة تقبل العمل عنده. . واشتراط أول الأمر أن تكون كبيرة في السن. . وهز فرغلي جذعه مؤمنا على الشرط. ولكن سعادة البية تصنع تفكيراً عميقاً ثم قال له وكأنه يعدل عن رأيه: الأحسن ألا تكون عجوزة جداً ويستحسن أن تكون نصفاً. وهز فرغلي جذعه موافقاً. ثم عدل عن رأيه مرة ثانية وقال: والا أحسن تكون شابة تستطيع أن تقوم بشئون البيت خير قيام، ثم أن سلم الخدم مرتفع والشفقة في الدور السابع. ولم يكتف فرغلي بهز جذعه موافقاً ولكنه ابتسم هذه المرة ابتسامة المدرك الفاهم المقدر.

وكان اليوم التالي يوم جمعة وهو الميعاد الذي اتفق مع فرغلي على المجيء فيه. وكانت الساعة الثالثة ودق الجرس. ولم يكن جعفرى موجوداً بطبيعة الحال، كان قد أدى عمله ومضى، فقام الأستاذ عبد الله بنفسه وفتح الباب. ووجد ابتسامة فرغلي تملأ فتحته. . كان فرغلي اذا ابتسم يفتح فمه ويغمض عينيه علامة الانبساط. وكان يرتدي بدلة ملكية غير بدلة الحجاب، بدلة لا بد قد

أنعم عليه بها قاض سابق، فقد كانت قديمة وواسعة متهدلة لم تعرف المكوى أبدا طريقا اليها. وكان للبدلة قميص كان يبدو كالجلباب الذي له ياقة لا أول لها ولا آخر. ومع هذا يصر فرغلي على إحاطتها برباط عنق من كثرة استعماله أصبح كفتلة الدوبارة، وأصبحت عقدته رفيعة متينة كعقدة الحبل.

ابتسم فرغلي وقال:

- الطلب موجود يا سعادة البيه.

ورنت موجود رنينا حلوا في أذن الأستاذ عبد الله وقال بلهفة:

- فين . .

- تعالي يا شهرت.

وجاءت شهرت . . ودخلت. لم ينظر اليها الأستاذ عبد الله أول الأمر، فقط لمحها. وأحس بخجل حين رآها ترتدي ملاءة لف، وخاف أن يكون أحد من سكان العمارة قد لمحها وهي داخلة شقته. وحين أغلق الباب استراح. ووقفت في ركن من الصالة قريباً من الباب، ودخل هو وفرغلي حجرة المكتب. وجلس وأمر فرغلي أن يجلس، ولكن الرجل أصر على الوقوف وتشبث، وأصر القاضي على أن يجلس. ومع هذا حين رضخ للأمر وجلس أحس القاضي بنوع من خيبة الأمل، وكأنه شك أن يكون قبول فرغلي الجلوس في حضرته ولو ببناء على أمره، يعني أنه بدأ يتساهل في احتراماته. وازداد اضطرابه وأصبح يكسوه مزيج من الخجل والتردد والحيرة. لم يكن قد رأى وجهها بعد

فقام - وانتفض فرغلي لقيامه - وغادر الحجرة الى الحجرة الأخرى، ورمقها بنظرة، وكان في نيته أن تكون خاطفة حتى لا تدرك انه يتفرج عليها. ولكن نظرتة تلكأت طويلا عند وجهها وكادت الا ترتد لولا ان انتزعها انتزاعا. لم تكن بالصورة التي تخيلها. كانت تبدو كأمرأة بلدي مثل غيرها من آلاف النساء. المرأة تحس انها زوجة وأم ولا تبدو عليها أبدا سمة الخاديات. الشيء المحير ان وجهها كان يبدو مختلفا غريبا، يلزمه أكثر من نظرة ليستطيع أن يحدد ملامحه. وليعرف ان كانت جميلة أم عادية الجمال. ولكنه وافق. . . وحين عاد الى فرغلي سأله عن الأجر. ورفض فرغلي رفضا باتا ان يتحدث في هذه الماديات. ان أعجبته فليعطها ما شاء وان لم تعجبه فغيرها موجود. ومع أنه لم يحس بالارتياح لما قاله فرغلي الا أنه أعطاه سيجارة. وكانت الخطوة التالية هي التخلص منه، ولهذا ناوله خمسين قرشا اجر المواصلات. واحتج فرغلي بملامحه يقبل يده. .

وأخيرا ذهب. .

كانت لا تزال واقفة في الصلاة وكان هو قد عاد الى حجرة المكتب وجلس فقال لها:

- م تيجي. .

وجاءت والملاءة لا تزال ملتفة حولها، ووقفت تواجهه وتسند ظهرها الى الباب المفتوح. وعبرها بنظرة أخرى. . كانت ملامحها قوية ناطقة، وكان وجهها مشربا بحمرة، وتحت ستار

ملاحظتها القوية أنوثة لا تستطيع أن تحدد موضعها . وقال لها وهو
يتعمد الخطأ :

- اسمك عفت . .

فأجابت :

- خدامتك شهرت . .

ولاحظ أن صوتها له رنين أنثوي مبحوح يدغدغ الأذن . ثم إنها
نطقت خدامتك بلهجة أقرب إلى التأدب منها إلى الذلة والاستسلام .

- متجوزة ؟

وسكتت قليلا ثم قالت :

- أيوه . .

- ومخلقة ؟

فقالت :

- بتتين وولد . .

وعاد يرمق وجهها بعيون جريئة لا ترمش ولا تخجل . كان
يبحث عن شيء ما ، ذلك الشيء الذي علمته خبرته ان يبحث عنه
كلما التقى بامرأة ، الشيء الذي يعني ان لا مانع لديها مشلا . ولكنه
لم يجد . فقط فطن الى انها لا تزال ممسكة بالملاء وقبضتها شديدة
فيها . وسألها وكانت الساعة الثالثة :

- اتغديتي؟

وأنزلت وجهها الى الأرض وقالت:

- الحمد لله . .

وفهم انها لم تفعل، بل خيل اليه انها لم تتناول افطارها أيضا.
وأمرها أن تذهب إلى المطبخ فهناك بقية من طعام، وغمغمت
تصر على ان الحمد لله، ولكنه ألح وأغلظ، وحين وجدها لا تعرف
مكان المطبخ قام وأراها الطعام. وعاد الى الحجرة وجلس يفكر. لم
يكن يتوقعها هكذا! فيها قوة تلك المرأة. . انها غلبانة وترتدي الملاءة
اللف، ولكن ما يضيفي على شخصيتها مهابة قل ان تتوفر لامرأة
مثلها، لعله ما يصيب ملامحها من براءة. هل يستطيع؟ إنه خائف. ان
البراءة تحتاج الى جهود صعبة للتغلب عليها. وأحس من حركتها انها
انتهت من تناول طعامها، فأتجه الى المطبخ ووقف على بابيه، وكان
يود أن يبدأ حديثا:

- انتي اشتغلت عند حد قبل كده؟

- لأ. . دي أول مرة.

ولم يصدقها. . انها تريد أن تبدو في نظره من ربات البيوت
اللائي دفعتن الحاجة الى العمل. . تمثيلية قديمة. . وانتهى عند
هذا الحديث وكان لا يريد له ان ينتهي. ووجد موضوعا وأمرها ان
تخلع الملاءة وكانت لا تزال تلفها حول نفسها. وخلعتها واحتارت
اين تضعها وكل ما في المطبخ أنيق ونظيف لا تجرؤ على وضع

الملائة فوقه . ووضعتها على السجادة في ركن الصالة ، وكانت ترتدي تحت الملائة فستانا من الحرير الباهت جدا .

وقال لها وعلى فمه ابتسامة ماكرة :

- تعرفي عملي قهوة ؟

فأجابته وهو تنظر في وجهه باستقامة :

- سكر ايه ؟

النظرة صريحة ، والطريقة التي تنظر بها اليها فيها أنوثة قوية ، فأجاب في ببطء :

- م . . م . . مضبوط .

وضحك دون سبب يدعو للضحك . وأضاف دون ان يكون في نيته ان يضيف :

- واعلمي لك فنجان .

وأجابته وهي مشغولة في اعداد الكنكة :

- كتر خيرك .

وتملكه ارتباك غير قليل . أحس كما لو كانت هذه المرأة شهرت تعرف كل شيء عن نواياه ، والدافع الذي حدد به الى أن يكلم فرغلي ، وتعرف لماذا ضحك من ثوان ، ولماذا هو واقف أمامها الآن يحاول أن يتمحك فيها ، ولا بد أنها بينها وبين نفسها تسخر منه ، وتضحك على القاضي القاضي .

وتملكه عناد. ولوا فليكن هذا! فلتكن تعرف كل شيء! لم يعد أمامه أي خيار.

كانت شهرت في ذلك الوقت واقفة أمام الموقد وممسكة الكنكة بيدها ورأسها منحني، وعيناها مستغرقتان(أو على الأقل هكذا كانتا تبدوان) فيما أمامها. فغادر مكانه عند الباب واقترب خطوات ثم قال:

- واتي ساكنة فين؟

قال هذا دون أن يحفل بالجواب، وقاله وهو يضع يده على كتفها، بل قاله ليستطيع أن يضع يده على كتفها. ولم يعلم بماذا أجابت لأنه في تلك اللحظة كان يحاول أن يقيس بأصابعه مدى استجابتها. وأحس بكتفها تحت أصابع يده يتململ ولا استسلام فيه. واقترب منها بلا وعي متحديا تلك المقاومة، وأصبح واقفا خلفها مباشرة وأحس بجسدها كله ينتفض أمامه ويتململ. واقترب منها أكثر وجذب كتفها ليمنع حركتها، وانتفض جسدها انتفاضة كبيرة استدارت اثناءها وسألته:

- الفناجين فين؟

ونبتت نقط عرق فوق جبهته.

وحاول ان يبتلع ريقه الجاف.

وأمرها بلهجة حادة ان تنظف الشقة بعد ان تنتهي من القهوة. وعاد الى الكرسي الهزاز. وأحضرت له الفنجان في أدب ووجهها

جاء. وفي أقل من ثوان كانت الشقة كلها يغمرها الماء ولا شيء على أرضها، وكانت هي منحنية تنظف وتمسح في نشاط زائد. وكان وهو في مجلسه يلمح جسدها المنحني كلما أصبح في متناول بصره. وكانت سيقانها من الخلف بيضاء محمرة، ومن خلال ثوبها المتآكل كان يلمح بعض جسدها. وكان منظر تلك الدوائر من اللحم الحي وهي تطل من النوافذ المبعثرة في ثوبها تفور له دماؤه.

وقام من مجلسه واقترب منها مدعيا أنه يشرف على عملية التنظيف.. وأخذ يأمرها: الحته دي لسه.. كمان هنا.. وطبي شوية عشان تطولها. ووجهها الى الأرض وجسدها كله طوع نظراته. وانتهت من عملها.

وسألته ان كان هناك شيء آخر؟ وأجاب بالنفي. وحينئذ سألته عن الوقت الذي يجب عليها أن تحضر فيه؟ وقال لها:

- كل يوم الساعة الثانية والنصف بعد الظهر.

وكان هذا مناسبا جدا، ففرغلي يذهب في الثانية.

وراودته نفسه أن يحاول معها محاولة أخيرة في ذلك اليوم، ولكنه خاف من فشل آخر فأجل المحاولة. ولفت هي الملاءة حول نفسها ومضت بخطوات قوية فيها مهابة وجلال.

وظل الأستاذ عبد الله يلعن ضعفه بعدما ذهبت. امرأة مثلها لا يقدر عليها؟! امرأة آتية بإرادتها، والشقة خالية، وهو مهما كان شاب ذو مركز، ولا يستطيع؟!!

- ٣ -

وكانت تأتي بعد هذا في الثانية والنصف تماماً . وفي كل يوم يفكر . وفي كل يوم يؤجل . الى أن كان يوم وكانت تعيد تنظيم الفراش بناء على أمره (اذ كان جعفري يقوم بهذا في الصباح) وأطبق عليها فجأة وأخذها بين ذراعيه ، وحاولت أن تتملص وتقول أنا في عرضك وأنا في طولك ووالنبي . ولم يأبه هو بهذا ولا لمقاومتها، وفي الحقيقة أتعبته كثيرا حتى أجبرها على السكوت .

وما كاد يجبرها حتى انتابته موجة فرح غامرة . وود ان يعرف ان كانت ساكنة لأنها لا تملك شيئا أمام قوته القاهرة ولا تستطيع دفعه ، أو ان كانت ساكنة لأنها قد سلمت وخضعت أخيرا . فكف عن اجبارها ولكنها لم تقاوم ولم تدفعه ، اذ ما الفائدة بعد كل الذي حدث ؟

وتركها .

وعاد اليها بعد قليل . كان يود أن يحدق في ملامحها القوية ويرى ما حدث لتلك الملامح ، ويرى ما جرى للحمرة التي تلون وجهها . وفوجيء بعينيها محتقتان وخدودها تلمح . وتضايق وسألها :

- مالك؟

وكان يتوقع ان تغمغم كعادتها بشيء مثل: ولا حاجة. ولكنها
سكتت. فكش فيها:

- مالك؟! فيه ايه!

وحدقت في الفراغ وسكتت.

وهز كتفها هزة يختلط فيها قليل من الاشفاق بكثير من الضيق:

- مالك؟

فقالت:

- أصلي عمري ما عملتها.

وانهمرت الدموع من عينيها.

ولم يصدقها أبدا. تمثيلية قديمة أيضا تجيد أداءها تلك المرأة
ذات الشخصية. تريد أن تضحك عليه وتوهمه أن تلك أول مرة.
حسبته عبيطا أو ساذجا، أو لا بد تريد زيادة.

غير أنها لم تطلب زيادة في أجرها، ولم تسمح لعينيها بعد ذلك
أن تلتقي بعينيها، كانت تحدثه وقليلًا ما كانت تحدثه، وهي إما
خافضة بصرها الى الأرض أو متشاغلة بشيء.

وكانت قد أعجبت. ولعل ما أعجبه في التجربة أنه أخذ كل
شيء بذراعه هو. لم تكن نقوده ولا أدبه ولا مركزه هي التي
انتصرت، كانت قبضته وقوته هي التي جلبت له النصر. وكان النصر

حبيبا لأنه قد أنهى به ذلك الصراع الخفي الذي دار في أعماقه بين صلابتها وضعفه، اذ إنه كان يحس على الدوام أنها أقوى منه، وأنها لو لم تكن خادمة وكانت سيدة صالون مدام شندي لما استطاع إليها سبيلا. كان النصر حلوا يغري بتكراره.

وفي المرة التالية كانت هناك مقاومة أيضا، ولكنها مقاومة اليائسة من المقاومة.

وتبدأ الأحداث عاصفة ثم لا تلبث أن تؤوب الى هدوء واعتياد. وكان وجود شهرت في البيت حادثا. . كان مجرد أن تظهر على الباب بملاءتها ويبدأ شبيبها يدق الباركيه شيئا يستيقظ له إذا كان متناوما، ويعتدل اذا كان جالسا، ويبدأ يفكر. . ترى هل يفعلها أو يؤجلها للغد؟ تراها كيف تبدو وماذا تقول عنه؟ وهل يعجبها؟ وهل يبدأ الآن أم الأنسب بعد تناولها الطعام؟ كان لا يستريح. وكان صوت الأطباق وهي تغسل، أو هفهة المكنسة وهي تعمل، أو اذا سألها سؤالا وهو جالس في حجرة بعيدة وجاء صوتها ذو الرنين الأنثوي المثير يجيبه. . ممدودا طويلا يلف أرجاء الشقة ويداعب أذنيه، كانت أصوات مثل تلك لا تنقطع، وكان وجيب قلبه لا ينقطع أبدا. كانت المسألة في نظره مغامرة دائمة فيها قلق الترقب ولذة المفاجأة. ولكن الأيام والأصوات - مهما كانت - فالإنسان سرعان ما ينساها ويسلاها، وسرعان ما يعتادها ويصبح ما كان يجعله يقشعر لا يكاد يثير انتباهه بالمرة.

وكان كل همه أول الأمر أن يشل مقاومتها تماما حين يكون

معها. ثم انتهى عهد المقاومة وأصبح الأمر لا يكلفه أكثر من أن يمسك بيدها مسكة ذات معنى، أو يحدثها عن أي شيء ويبتسم بركن فمه ابتسامة محملة، أو يسألها عن، أو يسألها عن «صحتها» ويضحك. وكانت تحاول حينئذ أن تتعد عنه، فإن كانت في الصلاة وأطبق عليها تملصت منه بخفة وتوجهت الى حجرة النوم. ولم يكن يدري لم تفعل هذا وهي تعلم انه ان آجلا أو عاجلا سينالها؟ كل ما يحدث أنه كان يستثار أكثر، وبعد أن كان بادئا الأمر على سبيل المداعبة اذا به يتشبث ويقبله الى حد يسارع في تنفيذه.

وكانت ما تكاد تلمح رغبته وتبدأ تراوغ، حتى ترسم على وجهها ابتسامة شاحبة فيها خجل ضعيف، قليل من الفتور، وكثير من التسليم بالأمر الواقع والقضاء والقدر. غير أنه كان ما يكاد ينتهي منها حتى تنقلب هذه الابتسامة الى شيء آخر، وكأنما تسخر منه، وكأنما تقول له: ولو!

ما كاد يصبح الأمر عادة حتى بدأ هو الآخر تفعل العادة فعلها فيه. وينطلق على سجيته أكثر. كان يترك نفسه معها الى آخر ما تستطيعه نفسه. لم يعد يدقق كثيرا ولا يصطنع ابتسامات. وأصبحت هي بالنسبة اليه شيئا كالمرتبة الحية التي يتمرغ عليها ويتشاب، ويتمطى ويعري ساقه ويستريح. وحين بدأت العادة تفقد التجربة ما كان لها من إثارة، بدأ يبحث عن إثارات أخرى. . بدأ يهمس في أذنها بكلام وقح لتردده له، ويتعمد أن يكشف عن نفسها كل غطاء حتى يطلع على كل مكنوناتها، حتى تلك الأشياء القليلة التي تستحي

أي أنثى محترفة أن تفرط فيها.

وبعد أن سار في الطريق كثيرا، اقتنع آخر الأمر أنها لم تكذب عليه، وأنه كان أول رجل في ينالها بعد زوجها. ومن قد لا يقنعه الكلام فالتجربة والمشاهدات اليومية والتصرفات التي تحدث دون وعي، وتلك الأشياء الصغيرة التي لا يستطيع الانسان أن يضع لها اسما أو حتى يملك وصفها، هذه الأشياء تكشف على الندوام الحقيقة، وتقنع. وذات يوم سألها وهو يضمها اليه ويواجهها ليستطيع أن يستشف كل خلجة من خلجاتها:

- انتي بتحبيني يا شهرت؟

لم يكن يدري الدافع الذي حدا به الى هذا سؤال كهذا. ولكن السؤال على اية حال كانت له نفسه جذور قوية، ولم يأت صدفة أبدا مع أنه فوجيء بلسانه وهو ينطقه. كانت حاجة في نفسه قد أُلحِت عليه.

هذه المرأة لها زوج وأولاد. وهي حلوة، وتعرف أنها حلوة. وقد جاءت تدفعها الحاجة الى العمل، ثم نالها. وهو ينالها كلما أراد. أهي تقبل ذلك فقط لمجرد أنه سيدها ورب نعمتها كما يقال؟ أم لأنها تريده وتتمناه؟ وهل اذا كانت تريده، من أجل منصبه وعيشته الفاخرة أم من أجل ذاته والرجل الذي فيه؟

كانت هذه النقطة تؤرقه. كان يتمنى - ولو مرة واحدة في حياته - أن يكون رجل امرأة - أية امرأة - ولو كانت شهرت. وظل

يتلمس الشواهد . ولكن الشواهد لم تفده . إنها لا زالت تفرح كلما ترك لها باقيا من نقود . انها أحيانا تسأله أن يقرضها ريالاً أو نصف ريال . هل الحاجة هي حقيقة ما تدفعها أم هي ترغب فقط في تغفيله وابتزاز نقوده؟ وهل مواظبتها على أرضائه هو من أجله ومن أجل رجولته؟ أم هو تماماً كمواظبتها على تنظيف الشقة ومسحها؟

الشواهد لم تفده . أوقعته في حيرة ، لا لأنها متعادلة الجوانب ولكن لأنه أيضاً لم يكن يفكر في شهرت بكل ما حولها وبكل ما يربطه بها الا فقط في تلك الدقائق التي يريدها فيها . كانت حياته تمضي كما اعتادت ان تمضي . . العمل ، والقضايا ، والحيثيات المتأخرة ، والبريدج ، ومدام شندي ، ولقاءات مع فتيات أخريات ، ونزهات بالعربة وغيرها وغيرها مما يصنع حياته . كانت الأسئلة تشغل باله في تلك اللحظة التي يخفق قلبه ويدق حين يخطر في باله ذات لحظة أن ينالها . ولهذا لم تشغل الأسئلة تفكيره كثيراً .

ولماذا اللف والدوران؟ قل انه سألها لمجرد العبث أو لمجرد حب الاستطلاع ، أو لأنه كان يتمنى فعلاً أن تكون قد أحبتة .

وسكنت شهرت أسبلت جفونها ، وجفونها المسبلة ليست شيئاً جديداً عليه . فبرغم ما في عينيها من جمال كانت لا تكاد تحدثه الا وجفونها مسبلة .

وضحك وضغط عليها وضحك وقال :

- هيه . . بتحبيني؟!

فابتسمت وتساءلت :

- هو اللي بيحب حد يقول له أنا باحبك؟

وخرجت كلماتها ساذجة بسيطة . ولا بد أن الكلمات البسيطة تنبع من الصدق لأنها تنفذ مباشرة الى النفس بطريقة لا يستطيع الانسان حتى أن يرجع اذنيه ليتشكك في صدقها .

وجعلته اجابتها يحتار . من أين أتت تلك المرأة بهذه الاجابة؟ انها تذكره بمحاورات سقراط وأفلاطون . هؤلاء الناس البسطاء كيف يفكرون بمثل هذا الصدق والحق؟ لو كانت متعلمة لكان قد قال لنفسه أنها لا بد قد قرأت تلك الاجابة في كتاب ، ولكنها غير متعلمة بل هي لا تعرف القراءة والكتابة . وأعجبه الحديث فمضى يحاورها :

- ازاى؟ طبعاً . . لازم يقول له أنا باحبك .

فأسبلت جفونها وقالت :

- ده لما يقول كده يبقى عايز يضحك عليه .

- يضحك عليه ازاى؟

- الحب في القلب واذا طلع على اللسان يبقى مش حب .

وأعجبه الحديث جداً . ترى ماذا تعرف تلك المرأة عن الحب؟

وما الحب في نظرها؟ انه يقرأ عن الحب ، ولكن الذين يكتبون عنه أناس مثقفون وحكماء . وهو يخوض المناقشات حول معنى الحب ومصدره والدافع اليه ولكنه يخوضها مع أمثاله من المتعلمين ،

ويا لها من فرصة تلك التي أتاحت له أن يناقش امرأة خام مثلها في الحب . وسألها :

- قل لي يا شهرت . . الحب ده ايه ؟

فانثنت وأشاحت بوجهها وقالت :

- يوه . . أنا عارفه بقى . . .

وأخذ يرجوها أن تجيب ويلح في الرجاء ، فقالت :

- أنا عارفه . . . أهم طول النهار يقولوا الحب الحب .

فقال بعصبية :

- لأ . . . أنا عايز رأيك انتي . . . يعني في نظرك الحب ده ايه ؟

- الحب ده حاجة من الله .

- يعني ايه من الله ؟

- يعني لما ربنا لما يريد الواحد يحب .

- يحب يعني ايه . . . يبقى عايز ايه . . . يحس بايه ؟

- والنبي يا بيه أصلك رايق .

وسكتت . وكان يبدو ان سكوتها لا لأنها لا تجد اجابة ما ولكن

لأنها لا تستطيع أن تقولها .

* * *

والانسان قد يبدأ الشيء لمجرد التسلية، وإذا به يتحمس له وينقلب الأمر الى جد خطير. وهكذا أثارت له تلك المناقشة مشكلة. انه لا يعرف زوجها، ولا حتى يذكر اسمه ولا يعرف ان كان صالح أو محمود. سألها عنه مرة وأحيانا تردده أمامه، ولكنه لم يعلق بذهنه. . بل انه لا يعرف ماذا يشتغل هذا الزوج. ولكنه زوجها على أية حال وخلف منها أطفالا ثلاثة، فلا بد أن بينهما شيئا. ترى ما هو؟

ولم يسأل الأستاذ عبد الله نفسه هذا السؤال الا لأنه كان قد وضع نفسه بين شهرت وزوجها. ترى هل تحبه أكثر من زوجها، أم تحب زوجها أكثر؟ مشكلة لو كان قد فكر فيها في أي وقت آخر لما كان قد أقام لها وزنا، ولكن في الظروف التي كان يدور فيها الحديث بينه وبين شهرت بدت المشكلة مهمة جدا في نظره. ولهذا قال لها وقد احتواهما الفراش:

- شهرت. .

فقالت:

- نعم!

- انتي بتحبيني أكثر والا جوزك؟

خجل من نفسه حين نطق السؤال، وكاد يغير الموضوع، ولكنه ما ان نطق به حتى بدأ قلبه يدق وكأنه ينتظر نتيجة امتحان. أجل! هل تحبه أكثر من زوجها؟

وكان ما غاظ الأستاذ عبد الله أنها سككت. . لم تفتح فمها. فقط اسبلت عينيها وابتسمت، وخجلت وسككت. ماذا كان يعني سكوتها؟ بالتأكيد لو كانت تحبه أكثر لأخبرته ولو من قبيل التظاهر، ولكنها لم تجب. وملاه غيظ صبياني. . هذه الحقيرة ماذا في زوجها الذي لا يستطيع الانفاق عليها ويجعلها تفضله عليه؟ أيحسم الأمر ويطردها، فعلا يطردها. ولكن الخطوة كبيرة ولا يستطيع تنفيذها الآن وهو قد تعود عليها، ثم إنها عرفت مزاجه وما يرضيه وما يسخطه وهو يستريح لوجودها، ثم هذا الشيء الذي لا يمكنه تحديده والذي يشده اليها. . والمسألة مسألة زمن. لقد أمضت مع زوجها سنين ولم تقض معه سوى أيام معدودات. لا بد أن يعلمها كيف تحبه، هذه المرأة ذات الملاة اللف الغلبانة ألا يستطيع أن يعلمها كيف تحبه؟ وأمضه التفكير في هذا. كيف يجبرها؟ كيف يستولي عليها؟ كيف؟

وازداد غيظه حتى كاد ينفجر.

ولكنه لم ينفجر، بعد ساعة واحدة كان جالسا الى المكتب غارقا في خضم أربعين قضية عليه أن ينظرها في الغد، وقد نسي كل شيء تقريبا عن شهرت وزوجها والمشكلة الي أثارها بنفسه، حتى إنه حين أمر شهرت أن تعد له فنجانا من الشاي أمرها بنفس اللهجة التي يستدعي بها فرغلي شاهدا من الشهود.

- ٤ -

كانت التجربة في أول الأمر يلفها التزمّت والجسد، يستدعيها بخطة وإصرار ويرهب وجودها، ويرهقه ذلك الوجود وتشغل باله كل حركة من حركاتها. غير أن الموضوع كله لم يلبث أن أصبح عادة، ثم أصبح عادة مملة.

لم يعد في وجه شهرت ما يخيف أو يجبر على الرهبة، أصبح وجهها وجه امرأة عادية تحت أمره في كل وقت وكل لحظة وأصبح جسدها في يده كالورقة المهملة التي يستطيع متى شاء أن يكورها ويلقيها في سلة المهملات.

وحين وصل الأمر إلى هذا الحد امتلأت نفسه بنشوة الفوز. لقد انتصر! ولم يعد يفكر في شهرت كثيرا أو قليلا. أصبح وجودها في الشقة شيئا عاديا مثل «الغاز» الموضوع في ركن «الأنثريه»، كل الفرق بينها وبينه أن زهور الغاز تتغير كل يوم أما شهرت فملاصحتها كالزهور الصناعية التي لا تذبل ولا تنضر ولا يتغير تفتحها.

غير أنه في أحيان قليلة جدا كان يسأل نفسه: ترى هل انتصاره هذا حقيقي؟ ترى هل استحوذ على شهرت تماما؟ ترى هل

أنساها زوجها وأحبته؟

في معظم الأحيان كان لا يحفل بالاجابة على تلك الأسئلة . الأمر لم يعد يهمه، فحتى لو كان قد أخذها كلية أم لا تزال لغيره، فسيان . ولكنه في نوبة من نوبات تلك الأسئلة تحمس وشغله الأمر حيناً فقرر أن يجري تجربة .

قرر أن ينقص ماهية شهرت، فإن كانت قد تعلقت به فستقبل الأمر حتماً، فإذا لم تكن فستتركه . ولم يخالجه أدنى خوف أن تتركه، بل كان في الواقع يتمنى أن تتركه . . وقد بدأ كلما سأله فرغلي متملقاً عن الحال يعقد وجهه ويحدثه عن أخطائها الكثيرة، ويحوم حول عيوبها، وملاءتها، وعدم قدرتها على القيام بعبء الأعمال في البيت . . كان يريد شيئاً جديداً .

وفي أول الشهر نفذ الفكرة وأنقص جنيهاً . واحمر وجه شهرت وهو ينهي إليها بالخبر . . احمر جداً حتى خيل إليه أنه لأول مرة يشاهد احمراراً حقيقياً في وجهه . احمر وجهها وتلقت منه الماهية ووضعتها في حافظتها الصغيرة الكالحة ولم تنطق بحرف .

وفي ثاني يوم لم تحضر . وقلق الأستاذ عبد الله وأنبه ضميره قليلاً، ولكنه لم يشأ أن يؤلم نفسه أكثر فنفض عن نفسه مهمة التفكير والتأنيب وقرر أن يطلب من فرغلي أن يبحث له عن «طلب» آخر، ولكنه نسي أيضاً أن يكلم فرغلي، اذ كان تلك الأيام قد شغله موضوع مهم . . فقد رأى نانا ذات مساء خارجة من سينما راديو بصحبة شاب، وظل يتبعها ويسأل ويستقصي حتى عرف كنه ما

بينهما من علاقة . وحينئذ تجدد كل ما دار بينه وبين نانا بشكل حاد، وأصبحت استعادتها هي كل ما يشغله .

وبعد ثلاثة أيام أو أربعة كان عائدا الى بيته داخلا بالعربة الى الجراج الذي يحتل بدروم العمارة التي يقطن فيها، واذا به يجد شهرت جالسة على الأرض بجوار باب الجراج .

لمحها وتضايق، وقرر أن يتجاهلها ولهذا صعد من الباب الصغير الذي يصل الجراج بمدخل العمارة مباشرة، ولكنه وكما توقع تماما سمع الجرس يدق بعد دخوله الشقة بقليل .

وفتح وكانت شهرت . وابتسم ابتسامة صفراء وسمح لها بالدخول .

لم تتكلم هي ، وكان لا يدري ماذا يقول . وراح يراقبها باستخفاف وهي تمضي الى المطبخ وتخلع ملاءتها وتعمل .

كان جالسا في حجرة المكتب فنادى عليها وجاءت . وصحيح أنه كان خجولا ولكنه أصبح لا يخجل من شهرت، بل انها الشخص الوحيد في العالم الذي أصبح لا يخجل منه أبدا قال لها :

- جيتي ؟

فأجابت وهي تنظر الى أصابعها المبللة :

- واحنا نقدر نستغني .

فازدادت جرأته وقال :

- مال كنتي مشيتي ليه؟ عشان الفلوس نقصت يعني؟
 وتملكته وهو ينطق السؤال بعض المرارة، فقد تذكر أن انقاص
 الماهية كان امتحاناً لتمسكها به وأنه فشل في الامتحان. وأجابت:
 - أصل البنت كانت عيانه وخدتها المستشفى.

ورأى في اجابتها كذبا لا يوصف.

غير أن نسمة اشفاق هبت، لعل مبعثها كانت ملامح شهرت.
 كانت شاحبة بعض الشيء ووجهها يلمع وفيه استسلام وملامحها كلها
 ذابلة ومدلاة الى أسفل، وكأن كرامتها قد استحالت الى سائل ذليل
 يقطر من أنفها وفمها وذقنها. . فقال لها:

- هي التلاته جنيه مش كفايه والا ايه؟

فقالت:

- نعمه. . . بس منعهم أصله ساب الشغل.

- منعهم مين؟

- جوزي.

- آه. . . وساب الشغل ليه؟

- بيقول توفير والا مش عارفه ايه.

- هو بيشغل ايه؟

- دباغ.

- دباغ ايه؟ .. فين؟

- في المدبغة في المدبح .

وزام الأستاذ عبد الله ولم يجب، وأحس في التوبكره هائل لا يدري لمن يوجهه . وكلما نظر إليها ورأى الشيء اللامع يتساقط من ملامحها ورآها مستكينة، ووراءها زوج عاطل وأولاد، كان يزداد ما يحس به من كره وغثيان . وبلغ الغثيان مداه حين علم أن زوجها يعمل في مدبغة، وتختلط في ذهنه أشياء . جلد قدر ورائحة بهائم وغراء وعناق شهرت وفراشه، فينفجر

- طب روجي .

ومضت عنه .

ولعن الأستاذ عبد الله نفسه مرارا بعد هذا الحديث فقد جر عليه مشاكل . كانت المرأة أول الأمر مغلقة لا تفتح فمها بكلمة فبدأت تشكو . اليوم زوجها عثر على عمل في محل ألبان، وغدا ترك العمل، والبنث عندها حمى وإسهال، البنث ماتت، صاحبة البيت تطاردهم ودوشة كبيرة جرها على نفسه بلا أدنى سبب .

وأصبحت شهرت عالة .

وأصبح التخلص منها ضرورة .

ولكنه نحجول، وليس هذا كله شيء فهو انسان على اية حال، وهل يقبل على انسانيته وهم يجتازون هذا الكرب؟ من أين يأكلون؟

كان عليه أن يحتمل والاحتمال له حدود، لذلك كانت ما تكاد تفتح
فمها بالشكوى حتى يقفله .

ثم إنه رجل وشهرت لا تزال المرأة التي أعجبتة يوما ولا تزال
أمامه مشاكل الجسد رغم أنه يأنف من عمل زوجها السابق في
المديغة .

وفوجيء الأستاذ عبد الله ذات يوم بضحكة . . ضحكة رنت في
أذنيه رنيناً غريباً مختلطاً أذهله وحيره .

كانت شهرت رغم كل ما مر بينها وبينه امرأة ذات وقار . كان
يراها دائما في ملائمتها . . جسدها ملفوف وقامتها طويلة ولا انبعاث
في أعضائها أو ترهل، وكان وجهها جادا في أغلب الأحيان ولكنه
ذلك النوع السمج من الجد، وفي أحيان قليلة كانت تبتسم . .
ابتسامة كل ما تفعله أنها تزيد السماحة في وجهها وتدفع ببريق معين
الى نظراتها .

وكان رغم كل ما بينه وبينها يكن لها نوعا من الاحترام كانت
هي بالتأكيد مبعثه . فلا يذكر أنها لوثت لسانها مرة بخطأ، ولا قللت
من احترامها له، ولا طلبت منه مطلباً باهظاً، وكانت مطالبها كلها
متواضعة بسيطة ولا تلجأ الى سؤاله الا في أحوال نادرة .

غير أن تلك الضحكة أزعجته . كانت فيها ميوعة واستهتار وهو
لم يعهد فيها ميوعة أو استهتارا . ونادى عليها :
- يا شهرت .

- نعم .

- وخيل اليه أن «نعم» تخرج أكثر طراوة من فمها .

وجاءت . لم يدر ماذا تقول يقول لها أو لماذا ناداها . ووجد نفسه يسألها ان كانت تخلصت من الصرصار الذي في المطبخ ، وكان قد رآه وأمرها أن تقتله . وابتسمت له وقالت وهي تتدلل :

- ده لقيته لايف على صرصراية .

وأطلقت ضحكة رفيعة ، واشمأز منها وحقق فيها ، وخيل اليه انه يلمح في وجهها أشياء لم تكن موجودة ، أو أن وجهها ينقصه شيء كان موجودا . كانت أيام أن جاءت امرأة مصرية بلدي تنظر في وجهها فلا تجد فيه غير زوجة لها أولاد ، واذا به يراها الآن . . أجزاء قد غارت من ملامحها وأجزاء برزت ، وعيناها داخلتان في وجهها وحولهما دوائر وعلامات غير بريئة ، علامات تدل على تحول أصابها . حتى ابتسامتها لم تعد بسيطة ساذجة كعادة ابتسامتها ، أصبحت تحمل جزءا صناعيا ملحقا بها ومفتعلا .

وراعه ما وجدته من تغيير .

وظل الأمر يشغل باله . هل هو مسئول عما حدث؟ وهل هو فعلا الذي أحدث فيها هذا التغيير؟ وهل هو الذي انهال على ملامحها المخلصة المتزوجة فأحالتها الى ملامح امرأة تباع وتشترى؟

وفي الواقع أحس بنفسه مسئولا ولكنه تجاهل احساسه بتأنيب

الضمير. ان الانسان لا يؤنب نفسه الا اذا خاف من عقاب يتبع فعلته، وهو لم يكن خائفا من أي عقاب.

السبب الحقيقي الذي شغل باله كان شيئا بدأ ينهش صدره. . خوف غامض محير. ترى هل وحده هو وحده المشلول عن ذلك التغيير أم ان شهرت قد أنشأت علاقات أخرى مع أناس آخرين. أحس بالغيرة. . غيرة من نوع مطروق. ليست غيرة الحبيب على الحبيب ولكنها غيرة السيد على خادمته، أو غيرة السيد على نفسه. كان خائفا جدا أن تكون شهرت قد ساوته بصبي مكوجي أو بائع خبز، ولهذا كان قلقا، ولهذا تزايد قلقه.

وفيما توالى من أيام كان لا ينظر الى شهرت الا والشك يملأ عيونه. واذا أرسلها الى قضاء حاجة يستجوبها بدقة بعد أن تحضر، ويحاول أن يستغل فراسته كوكيل نيابة سابق وكل معلوماته عن علم النفس الجنائي لإدراك ما اذا كانت تخدعه أم تقول له الحقيقة.

وكان يسمعها تتضحك أحيانا وهي تصعد السلم فيسألها حين تدخل، مع من ولماذا كانت تضحك؟ ثم ينتهز أول خطأ ويعاقبها بشدة.

وكان يعجب ويستغرب فقد تحولت شهرت. . كانت أول ما جاءت لا تكاد تستطيع أن ترفع عينيها في وجهه فاذا بها الآن كلما نهرها حدقت فيه وغضبت ولولا بقية من حياء لقاتل: وأنت مالك؟ ثم بدأ يلاحظ أن قسوة ما قد صارت لها، وأن شخصيتها تخمد فيها

روح الزوجة الأم وتتصلب وتأخذ شكلا فيه حدة وعصبية وجمود. كانت تناقشه وهي التي لم تكن تجرؤ على نقاشه، وترد على حججه بحجج. وكان يلعن ضعفه، وأحيانا ينتهز نفسه ويسألها: ما الذي يمنعه من طردها؟ ولكنه منذ أن بدأت تقوى بدأ ينكمش، وأحيانا لا يستطيع الاستمرار في مناقشتها.

هل كان خائفا منها؟

هل كان يخاف إن هو أغضبها ان تفضحه مثلا وتسود سمعته؟

أم كان فقط يخجل من مجابتها وهو العليم بلسانه المتواضع؟ لعله كان يخجل. ثم انها كان لها منطق، ومنطقها كان دائما قويا دامنا. كان هو يعتمد في مناقشته لها على أوهام وافتراسات وتخمينات مبعثها ما يدور في رأسه عن سلوكها، وكانت هي تعتمد على حقائق تكاد تدفعها في وجهه دفعا.

والغريب انها كانت كلما اشتطت في موقفها منه ازداد هو أدبا، بل أحيانا كان يتملقها. لا لم يكن ذلك النوع من الملق الذي يزفه كعادة المرؤوسين للمفتشين وكبار رجال الوزارة الذين كانت تربطه ببعضهم العلاقات. لا، نوع آخر أكثر تخفيا. مثلا بدأ يسألها عن زوجها بشكل منتظم وعن أولادها. وكان الزوج يحيره. . كانت شهرت لا تكف عن الشكوى منه وتلعن اليوم الذي دخلت فيه بيته، وسب كسله وخيبته. ولكنها كانت تتلفظ بالشتائم من فوق لسانها فقط وكأنها تنهر ابنها البكر ولا تعني ما تقول. كان أياما يعمل وأياما كثيرة لا يعمل، وهي على الدوام تعمل. وأولادها باستمرار موضوعا مفضلا

لأحاديثها، وهي المسثولة عن كل شيء أمام صاحب البيت. وحتى أمام صاحب العمل الذي يشتغل عنده زوجها. ويعمل زوجها بمسمط يوما، وفي يوم يوزع جبنة على الزبائن، وأحيانا قهوجي، وأحيانا تجهز له هي عجينة الطعمية ويقف على رأس حارتهم يقلبها ويبيعها. وكان يأخذ له في كل عمل يومين ويولي. وكان الأستاذ عبد الله يتولاه الذهول كلما فكر في تلك العائلة التي تحيا معلقة بين الأرض والسماء، ويتساءل.. ترى كيف تحيا لو لم تكن شهرت بعمل عنده؟ ولكنه يفكر في كل ذلك كما يرثي الانسان لزلزال يحدث في الملايو ويطيح بالقرى. رثاء.. مجرد رثاء يقضي عليه الملل الذي بدأ يتسرب اليه من شهرت ومشاكلها وعائلتها.

وجاءته في منتصف شهر تطلب منه جنيها، ولم يكن صدفة أن تطلب منه في ذلك اليوم التالي ليوم نالها فيه. وحز طلبها في نفسه وسألها:

- كم؟

فقالته وهي تضحك وتتمادى وتتدلح:

- سلف.

ورمقها فوجدها تنظر اليه بعينين لا تردد فيهما ولا خجل. فخجل وأعطاها الجنيه. وصمم أن يكون هذا شهرها الأخير. وقال لها بابتسامة فاشلة:

- وتجيبيه امتي؟

فأجابته:

- نقسطه .

وأعقبت اجابتها بضحكة ارتعشت لها أذنه .

وفوجيء بها بعد أيام وقد حضرت لأول مرة دون ملاءة .

كانت ترتدي «جيب» من قماش كاروهات رخيص، ولكنه جديد، وترتدي فوقه خرفة قديمة ممكن تسميتها مع كثير من التجاوز «بلوزة»، ولم يكن يغطي شعرها شيء. كان رأسها عاريا، وكان ثمة أحمر خفيف - لعله صنع بقلم كتابة أحمر - على شفيتها. وكان منظرها يبعث على الاشمئزاز.

كان الملاءة تضي عليها جدا وتجعل لها منظر الأم. أما هذا الزي، صحيح لم يكن فاضحا ولكنه ليس رداء أم بأية حال من الأحوال. ثم إن رأسها حين كشفته غير من وجهها وشعرها، وأظهر ما كان خافيا في وجهها وشعرها وأصبح لملامحها تعبير عمومي. كانت ملامحها فيما مضى لها طابع خاص ونكهة تميزها عن أية امرأة أخرى، ولكنها بدت مجرد امرأة ذات شعر خشن لم ينسكب عليه طلاء أو نعمة زيت، وقد أصبح مفضوحا لا يحجبه منديل ولا تحفظ عليه كرامته ملاءة.

وقال لها باستغراب حقيقي :

- عملتي في نفسك كده ليه؟

فأجابته بصوت كأنما كشف عنه الغطاء هو الآخر فأصبح مبحوحا ذا نبرة غريبة :

- أصلي بانكسف من الملاية لما باجي العماره .

وأضافت وهي تخطر أمامه :

- مش كده أحسن؟

قالت هذا وهي تنظر إليه عبر كتفها وتلفت خلفها بعينين فيهما نفس الجرأة والاستهتار .

ومط شفتيه علامة اليأس وقال لها :

- جوزك يا ترى قال ايه؟

وطرقع شيء في فمها وقالت :

- يا أخي دا اهدى . . هوحد بيشوفه .

- ليه سافر والا ايه؟

فقالت وقد تغيرت ملامحها :

- بقاله بسلامته ثلاث أشهر قاعد في القهوة .

- ليه .

- فنش شغل . .

وضحكت ضحكة ذات شهقة ، وقالت وهي تغير الموضوع وتخطر أمام مرآة الأنثريه :

- مش بذمتك أحسن من بتوع السима يا بيه؟

وأقسم في سره أن يكون هذا شهرها الأخير . .

وعوجت وسطها وقذفت بيدها في حركة تمثيلية متراخية على
وجهها في المرأة وقالت:

- مش أنفع يا بيه اشتغل في السيما؟

ومضت تصنع «البوزات» وتعقص رقبتها. ولما لم يرد قالت
وكانما ترد على نفسها:

- الناس بيقولوا اني أنفع في السيما.

- ٥ -

وثاني يوم حضرت بالملاءة. وسألها عن السبب وهو يضحك بسخرية. فقالت وهي واجمة أن البلوزة التي كانت ترتديها لا تصلح وأنها في حاجة الى بلوزة جديدة، وقد اشترت القماش ولكن يلزمها جنيه آخر للترزي.

وصمم أن لا يعطيها أي مليم. صمم والأمر يشغله. . ترى لماذا هذا التغيير؟ ولماذا تصر على ارتداء ملابس كتلك وهي تبدو أجمل بالملاءة. ولم يفترض حسن النية وهو يجيب واستمر يتساءل: ترى ماذا تفعل بعد انتهائها من عملها عنده؟ وكيف يأكلون؟ لا بد أنها تخرج في الشارع، وذوي الملاءات لا بد أن سعرهن قليل ولهذا تريد الجيب والبلوزة ليرتفع ثمنها.

ومع يقينه في صدق ما يخمنه الا انه راح يستنكر أن يكون ما يفترضه هو الحقيقة. ولم يشأ أن يتعب نفسه. . كانت شهرت بالنسبة اليه قد انتهت. بضعة أيام فقط ويطردها بلا رجعة، فلتفعل ما يحلو لها.

وألحت في اليوم التالي وهي تطلب منه أن يقرضها الجنيه

مدعية أن البلوزة قد تم تفصيلها. ورفض بجفاف. كانت قد استنفدت كل ما لها من نقود. وأي سلف لن يسترده، وهو قد صمم على ازاحتها ولن ينتظر إلى آخر الشهر. غدا يقول لها مع السلامة.

ولكنه كان يحدث نفسه بهذا كل يوم. وكل يوم ينسى. يخرج من الشقة في الصباح وفي نيته أن يفعل، ثم يهبط إلى الجراج ويدور حول العربة ويتأكد من نظافتها، ولا بد أن يجد فيها شيئاً يستحق أن يلوم صبي الجراج من أجله. ثم تتهاذى به العربة إلى المحكمة، وما أن يصل حتى تدب الحياة في بنائها. تحيات من اليمين ومن اليسار، وقيام وقعود، وهرولة وهرجلة. وفرغلي ما يكاد يلمح العربة حتى يقبل لاهثاً ويفتح بابها وينحني ويلفع الشنطة ويتبعه من بعيد، والناس من حولهما راكعة الرؤوس ولا مجال للكلام. ويدخل حجرة الانتظار. بعض القضايا لم يكن لديه مجال في وقت لمراجعتها وقد أشبعها تأجيلاً ولا بد من مراجعتها قبل بدء الجلسة. ويدخل الكاتب عجوزاً وله منظار وبطؤه أكثر كآبة من منظاره، ويأخذ أكثر من خمس دقائق ليقول صباح الخير ويتلکأ، وتأتي القهوة ويفرد دوسيهات القضايا. ويحس بالوقت يمضي بسرعة والساعة تقترب اقتراباً جنونياً من العاشرة، والجمهور في القاعة يتململ وقد بدأ يسمع بأذنه أصوات الاستنكار والهمس الخافت حين تعثره موجات ارتفاع فيغادر مكتبه. وفرغلي واقف على الباب وتدوي كلمته: محكمة! تكاد من فرط علوها وصلابتها أن تصنع قوس نصر ينفذ من تحته القاضي إلى كرسيه.

وتبدأ القضايا . . سريعة متلاحقة يهتم بتتبعها أول الأمر، ثم
يؤجل تتبعها ويسرح أو يحدق في وجه أعجبه أو لم يعجبه لشاهد من
الشهود، أو يستقل دم محام، أو تطرق بآله أحيانا فكرة أن يستقيل
من الحكومة ويعمل محاميا .

وينتهي اليوم، وتمضي به العربة ويتركها على باب الجراج
ويصعد . وما أن يفتح الشقة ويجد ملاءة شهرت راقدة في الأنثريه
كالراية السوداء حتى يذكر أنه نسي أن يفتح فرغلي في أمر طردها .
ويصمم أن لا ينسى في اليوم التالي . . وينسى في اليوم
التالي .

انتهى الأستاذ عبد الله من سرده وهو يخطب كفا على كف .
 كانت المسألة في غاية الوضوح . . شهرت أخذت الساعة لتبيعها
 وتدفع ثمن البلوزة بعدما رفض اقراضها وبعدما أحست أنه ينوي
 طردها . وكانت المسألة من كثرة وضوحها تدعو الى الغيظ . لماذا
 الساعة بالذات ؟ ولماذا اليوم بالذات .

وكان شرف لا يزال ممددا قبالته يستمع ، ويبدو أن طول ما رواه
 عبد الله قد عمل عمله فجعل عقل شرف يسترخي . كان جالسا يكاد
 يكون لا حول له ولا قوة .

وبلغ الغيظ بالأستاذ عبد الله متناه وقد أحس بنفسه يجابه
 الموقف وحيدا . جاء بشرف ليعينه فاذا به فاطر الحماس والأمر لا يكاد
 يهمه . خادمة مثلها تأخذ ساعته عيني عينك وهي تعلم أنه حالا
 سيعرف . انها ليست سذاجة منها أن تفعل ذلك ، إنها وقاحة وتحسد .
 وانفجر يحدث شرف ويتحول كلامه الى صياح . كان منفعلا وكأن
 كرامته هي التي سرقت ، وامرأة فاجرة هي التي سرقتها
 لتحترف بها . إنه لن يسترجع الساعة فقط ولكن شهرت لن تنفذ من

يده . . سوف يريها أنه ليس بالضعف والطيبة التي تتصورها وأنه ليس من الطير الذي يؤكل لحمه .

وأخذ الرجلان يكدان تفكيرهما ويتشاوران فيما يمكن عمله .
شرف جالس ممدد الساقين .
وعبد الله يروح ويجيء ولا يستقر في الحجرة .

كان يومها يوم الأحد وهو اليوم الذي تعودت شهرت أن تأخذ فيه اجازة، وهي لم تعود، هو في الحقيقة الذي عودها . لم يفعل ذلك أول ما جاءت بل هو تقليد وضعه مؤخراً بعدما ضاق بشهرت ولم يعد نوالها يكفي شغفه، وأصبح لا بد من العودة إلى الطريقة القديمة وإخلاء الشقة لزوار آخرين .

وفكر أول ما فكر أن يبلغ البوليس، ولكنه راجع نفسه، وراجع كل ما نظره في حياته من قضايا وكل ماسمع عليه فلم يجد أن البوليس قد أفلح مرة في إعادة مسروقات صغيرة كتلك . ما أن يبدأ البوليس يتدخل حتى تغوص المسروقات في سابع أرض، وليس هذا كل شيء، فإبلاغ البوليس يحتم عليه أن يقر - وهو القاضي الأعزب - أنه يستخدم عنده امرأة . ثم قد تتوقع شهرت وتفلت منها ألفاظ، ولهذا كان من المستحيل عليه أن يبلغ البوليس .

وكان فرغلي أول من خطر له هو مفتاح القضية . لا بد من استدعائه وشرح ما حدث له وتحميله المسئولية باعتبار أنه ولي أمرها وهو الذي أحضرها . ثم عليها بعد هذا أن يكلفه باستدراجها والحصول على الساعة منها . ولكن شرف لفت نظره الى شيء . .

شهرت ليست بالسذاجة التي قد يتصورها ولن تقع هكذا من أول هجوم. ثم من يدري؟ لعل حب الاستطلاع يدفع فرغلي الى توجيه أسئلة ما تؤدي الى أسئلة أخرى. لا بد أن يكون هو المتحدث اليها بنفسه حتى يستطيع أن يرد في الوقت المناسب ويزن الأمور.

ولكن... كيف يقابلها؟

هي الآن في بيتها - والساعة الثالثة - وهو لا يعرف بيتها. فرغلي هو الذي يعرفه، وفرغلي الآن في بيته، وإذا صبر الى الغد فلن يضمن بأي حال أن تبقى الساعة تنتظره. إنه مؤمن ايمانا راسخا أن لو أمكنه بطريقة ما أن يفاجئ شهرت في بيتها الآن فسوف تروع وتتعرف وتناوله الساعة. ولم يفلح شرف في زلزلة هذا الايمان واضطر في آخر الأمر الى متابعة أفكاره والى أن يبحث معه مشكلة العثور على فرغلي.

وظل عبد الله يعمل فكره. وتذكر شيئا.. تذكر انه نسي المفاتيح مع فرغلي مرة ثم استطاع العثور عليه وعلى بيته واستعاد المفاتيح بطريقة ما. ما هي تلك الطريقة؟

وكان الرجل في قمة توتره، كان عقله يعمل بسرعة وقوة لم يعمل بها منذ سنين، وذهنه حاضر لامع متدفق، وثمة دافع جبار يتفجر في نفسه ويغذيه بالنشاط ولا يكف عن تغذيته. كان كقائد جيش يعد للهجوم في الفجر ويعمل حسابا لأدق الاحتمالات. وتذكرا أمرا.. صبي الجراج. تذكر أنه كانت له علاقة باستعادة

المفاتيح . وفي الحال استدعى البواب وأمره أن يستدعي صبي الجراج . واستمر يروح ويجيء حتى دق جرس الباب ودخل الولد وفي أعقابهِ البواب الضخم الأسمر .

كان الصبي شاباً قمحي اللون مهلهل الملابس يبدو الريف على سيماءه ، بل يبدو أنه هارب من أهله في الريف . وظل الأستاذ عبد الله يسأله على الأقل خمس دقائق قبل أن يستخلص منه شيئاً . كان يبدو على الشاب أنه مروع باستدعائه أمام القاضي ، مذهول بالشقة والناس المتطلعين إليه .

وأخيراً هدا الشاب بعد أن حاول ابتلاع ريقه الجاف وكاد يتلع حنجرتِه . وسأله عن فرغلي ، وأنكر الولد انكاراً تاماً أنه يعرفه أو له به صلة . وحاول القاضي أن يسترضيه بسيجارة ولم يشأ أن يزيده اضطراباً ويأمره بإشعالها أمامه ، وعاد يسأله وهو يطمئننه وبربت على كتفه . وبعد جهود اشترك فيها شرف والبواب ، تطوع الشاب أن يحاول تذكّر بيت فرغلي والبحث عنه . وكفي تتوفر السرعة الواجبة أمر القاضي البواب أن يستصحبه ويأخذاً تاكسيا ولا يعودان إلا بفرغلي . وأعطاه جنيها يدفع منه مصاريف الانتقال .

وافترض الأستاذ عبد الله أن فرغلي قد جاء ومضى يكمل الخطة .

إن الموقف صعب . فرضنا أنه عثر على شهرت وواجهها . هل يضمن نفسه؟ انه هنا - وهي في بيته وهي خادمتُه - كان في أحيان

كثيرة لا يستطيع أن يقي عينيه في عينيها طويلا، فما بالك في ظروف كهذه؟ ولم يستقر الخاطر في ذهنه لحظة. كان الغضب يجتاحه ويؤكد له أنه قادر على مواجهة مائة شهرت وأنه ما أن يراها حتى يصبح في مكانه أن لا يتزع منها الساعة فقط ولكن يتزع روحها أيضا.

ولكي يطمئن كان لا بد له من الاستعانة بأمر آخر. اذا عن لها أن تكابر وتنكر، واذا استطاعت أن تتماسك أمامه فلا بد من تهديدها. وهو لا يملك وسيلة لتهديدها سوى تخويفها بالبوليس والسجن. ولكي تخاف من البوليس يجب على الأقل أن تراه بعينها. وهو يعرف معاون بوليس قسم ثان الجيزة، وممكن أن يستصعبه الى بيتها فقط لمجرد تهديدها وإخافتها. ثم إن معاون البوليس هذا شاب مرح لطيف يستطيع أن يشرح له الأمور اذا تفوهت شهرت بأقوال تشين. ولكن ماذا لو رفض المعاون أو اعتذر، وبيت شهرت بالتأكيد ليس من اختصاصه. . الا يكون قد كشف نفسه دون داع؟

ولا يدري كيف ساورته الفكرة، ولكنه صافح شرف في التو وهو يهنيء نفسه على ذكائه واكتشافه حلا عبقريا. لكاذبا لا يقوم شرف بدور الضابط، والاثنان يتعاونان على اعادة النظام الى شعر شرف المهوش حتى تصلح رأسه لضابط.

ودق الجرس.

وخرج الأستاذ عبد الله ووجد فرغلي واقفا يلهث وقد رفض

البواب ان يجعله يصعد في الأسانسير وجاء به من يده عن طريق سلم الخدم. وفرغلي ببدلته الواسعة القديمة المعتادة، وطربوشه الغامق المائل والعرق ينز من وجهه. وفي كلمات مقتضبة قليلة أنهى اليه القاضي بما حدث.

وما كاد فرغلي يتحقق حتى تراجع الى الوراء كالمذعور، وقال وهو لا يزال يلهث:

- ازاى؟ ازاى؟ ازاى بنت الـ.. .

وظل يردد الجملة لا يغيرها وثلاثتهم يهبطون السلم.
وركبوا العربة.

القاضي أمام عجلة القيادة في المقدمة، وشرف بجواره، وفرغلي جالس على أطراف الكرسي الخلفي يكاد يقف لو كان سقف العربة يسمح. وكان هو أيضا الذي يتكلم طوال الوقت أو بالأحرى يسب ويستنكر ويعد القاضي أنه سيخرب بيتها ويتم أولادها، ويطردها من الحنة.

وكان فرغلي يتكلم عن «الحنة» كما لو كان القاضي يعرفها.
وسأله الأستاذ عبد الله عنها فقال فرغلي بلهجة الواثق:

- جنب حارة الروم على طول.

وعاد القاضي يسأل وفرغلي يجيب بأسماء لم يسمع عنها القاضي ولا حتى شرف. وأدرك الاثنان أخيرا أن «الحنة» التي يقصدها فرغلي هي الحارة السد التي تقع في مكان ما وراء الجامع الأزهر.

بدأ الأستاذ عبد الله الرحلة وهو في قمة انشراحه . ضمن الوصول الى شهرت، وضمن المفاجأة، وضمن العثور على الساعة، وضمن الخطة. بدأ الرحلة تماما كالتلميذ المجتهد الذاهب الى امتحانه وهو متأكد من النجاح وعلى وجهه اشراقة النصر. ولم يكن منشراحا فقط بل كان أيضا نشوان، ففوق أنه سيستعيد ما أخذ منه غدرا، فقد كان في الطريق الى اختبار ذكائه ومقدرته على التفكير. والمغامرة في حد ذاتها لذیذة . . مغامرة جديدة رائعة أن يضبط شهرت بنفسه ويضبطها متلبسة، ويراقب انفعالاتها بدقة، ويرى ارتباكها ورجفتها وانكارها. أو قد يحدث حادث مفاجيء لم يعد له حسابا ولكنه لا بد سيكون ممتعا وسيكون التغلب عليه أكثر امتاعا. المغامرة رائعة حافلة في كل خطوة منها متعة، وفي رواية تفاصيلها بعد ذلك لأصدقائه سعادة .

الأحاسيس الدافئة كانت تملؤه والخواطر السوداء كان يطردها . فقد لا تكون شهرت هي السارقة رغم دقة ذكائه، أو تكون قد تصرف في الساعة، أو يفشل في مواجهتها ومفاجأتها.

وتتأمر عليه عشرات الاحتمالات ولكل احتمال منها وجاهته، ويحس برأسه يكاد ينفجر. منذ أن عاد من المحكمة وهو لا يكف عن التفكير، والانسان له عقل واحد، وعقله قد تحمل فوق طاقته وما عاد في استطاعته المضي.

وقرر أن يوقف التفكير في شهرت والساعة - وما قد يكون - في الحال - ولم يستطع. في كل مرة يظهر طرف سؤال أو احتمال ثم لا يلبث ان يتكامل.. ويصبح مطالبا ببحثه والاجابة عليه. ولهذا قرر أن ينصرف عن الموضوع كلية، ولم يجد أروع من أن يجعل عقله يسترخي ولا يفعل شيئا سوى استقبال ما يتتابع أمامه من مشاهد وتأملها وحصر نفسه فيها.

ومن تلك اللحظة بدأ يحس بنفسه ينزلق ويتوه ولا يستطيع أن يحدد واقعة بذاتها، أو يتذكر دقائق حدث معين، أو يعثر على سبب واضح لما اعتراه.. وكأنما قد حدث كل ما حدث وهو نائم يحلم أن شيئا مما رآه لم يحدث. إنه لا يزال يذكر علامات باهتة للبداية، وكان في شارع الجبلية والشارع طويل نظيف تحفه أشجار مقلمة فروعها ومرسومة، والمساحات واسعة والعمارات شامخة وعالية وكل عمارة لها نمط وشخصية والمارة نادرون.. والهدوء مخيم والسكون تام لا يسمع فيه الا حفيف العربات السارية، وكلها من ماركات فاخرة وموديلات حديثة، والهواء مفتوح النواذل يسري ناعما رقيقا في حرية، وموج النيل يمشي على أطراف أصابعه حتى لا يعكر قدسية السكون المستتب.

والعربة تمضي وكأنها تمضي فوق بساط من حرير، وصدوره

ممتلىء بأحاسيس جياشة وحواسه تستعد للمشاهد المثيرة المقبلة،
وشرف بجواره يدخن في صمت ولذة ويتسم كلما تذكر دوره،
وفرغلي جالس في المؤخرة متشبث بالمسند الأمامي يكاد يشم رائحته
ورائحة بدلته، ورذاذ كلامه يتطاير ويغرق أذنه اليمنى . .

وعند أول الكوبرى تلتقي العربى بأسراب العربات القادمة من
الزمالك والجزيرة والدقي والجيزة، أسراب جديدة رائعة الألوان
كأسراب الطيور تعبر الكوبرى وهي تكاد تطير . . وفي دوامة ميدان
قصر النيل تتسرب الموديلات القديمة وعربات الأجرة ويوزع الميدان
محتوياته ويملأ بها شوارع المدينة حيث الحركة دائبة والانتساع أقل،
والبنائيات متلاصقة متقاربة، والأصوات قد بدأت تشغل الأسماع،
والألوان تتعدد، والماشون على أرجلهم قد بدأوا في الظهور. وفي
العتبة تختلط العربى بالأوتوبيسات وعربات الترام والمارة والكارو،
وتبدأ الجلابيب، وتعنف الحركة، ولا يبقى ثمة نظام . .

وحين يدلفون الى شارع الأزهر يصل الصراع الى قمته .
ويختلط في بطن الشارع الحابل بالنابل، والراكب بالماشي . وعويل
العجلات وصراخ الكلاكسات، وزمامير الكمسارية وزئير الموتورات،
وسرعة أجراس الأحصنة وصفافير عساكر المرور، وزعيق الباعة
والمارة، والحرارة تصل أوجها والازدحام منتهاه، ويصبح لا مكان
لفرد وكل شيء بالجملة، الركوب بالجملة والشراء بالجملة
والحوادث أيضاً بالجملة، والآلات هي التي تتصارع والبقاء للأكبر
وبين الحين والحين تسمع: حاسب . . كالصرخة الأخيرة لقتيل
يغرق.

وتصبح قيادة العربة عذاب، وروحه تبلغ الحلقوم، والمارة لا يكفون عن سبه. وفرغلي لا يكف عن رد السباب بأحسن منه، وتصميمه على تأديب شهرت يزداد. لم يعد كافيا أن يخيفها ويستعيد الساعة. لا بد من الانتقام لكرامته. آه لو يخنقها. أجل يلف أصابعه حول عنقها ويظل يضغط ويضغط على النفير، ولا يسمع له صوتا ويشدد من ضغطه والضجة تمتص الأصوات وتمنع الصرخات، والازدحام هائل، والتقدم بطيء يفجر المرارة، وجامع الأزهر يبدو عاليا مغبرا أحجاره كبيرة - الحجر يبنى بيتا - وجداره متين تملأه الخرايش والحفر ولا يهتز بما حوله، ويشهد الصراع القاتل من مئات السنين ولا يحرك ساكنا ولا يستطيع ساكن أن يحركه. وتنحرف العربة إلى اليمين.

ويتركونها بناء على نصيحة فرغلي وتحت مسئوليته، ويكملون الرحلة سيرا على الأقدام. وبعد خطوات قليلة يحس بفراغ في رأسه وكأنه أصبح وحيدا في مكان عريق مهجور. والضجة ماتت والهدوء قد أصبح شيئا ملموسا وكل ما حوله قد بدأ يهوي أمام ناظره. إنه مصري مائة في المائة، أبوه من المنيرة وأمه من العباسية وله أقارب فقراء في الصعيد، وسافر ورأى وانتقل وحقق ولمس بنفسه أقصى درجات الحاجة. وهو متأكد انه لا يزال في القاهرة لم يغادرها، وأن المكان الذي يمشي فيه حي من أحيائها، ولكن المراثيات تتابع كلما تقدم ويحس بالذهول وبأنه يدلي بحبل في بئر لا قرار له.

الشوارع أول الأمر مستقيمة ذات طول وعرض وأسماء

مشهورة . . وأسفلت واضح وتلتوار . . والبيوت على الجانبين مزدحمة ومكدسة . . ولكنها بيوت لها أرقام وبلكونات ونوافذ بشيش وزجاج وبوابات ذات زخارف، والحركة مائجة هائجة . . والدكاكين لها أصحاب ومكن وعمال ويفط مكتوبة بخط أنيق، والمارة وجوههم حلقة فاتحة فيها دماء، وملابسهم كاملة زاهية ذات ألوان وتفصيل، واللغة راقية مكونة من جمل وكلمات، والجو تملؤه رائحة الوقود المحترق والمانيفاتورة والعطور . .

ويتقدمون . . وتضيق الشوارع وتقل شهرتها، وتفقد البيوت أرقامها وتنقص أدوارها، وتصغر أبوابها وتصبح نوافذها بلا شيش، وتتحول الدكاكين الى حوانيت صاحبها هو عاملها ويداه هي المكنة، وتشحب وجوه المارة وتزداد سمرة، وتبهت ألوان الملابس ويتقدم بها العهد، وتحلل اللغة وتصبح كلمة ونداءات وشتائم، وتهب رائحة العطارة والجلود والغراء والخشب المنشور.

ويتقدمون . . وتضيق الشوارع وتضيق وتفضي الى حارات تصك أسماؤها الآذان، وتأخذ مكان الأسفلت كتل صلبة من الأحجار، وينتهي التلتوار. وتتقدم البيوت ويفصلها عن الحاضر أحقاب وأحقاب، وتصبح النوافذ فتحات ليس فيها غير الحديد. وتخفت الحركة، وتندر الحوانيت وتتقطع ويصبح بين البقال والبقال مشوار . . وتتضخم الملامح وتغمر الوجوه وتنبت اللحي وتغزر الشوارب وتتناقص الملابس ويصبح البنطلون بلا قميص والجلباب بلا سروال، وتفتت اللغة الى أنصاف كلمات وأرباع وتعبيرات لا

يفهمها سوى أصحابها، وتختفي روائح الدكاكين وتمتلئ الأنوف بروائح الثقيلة والملوخية متصاعدة من البيوت . .

ويتقدمون . . وتتعرج الحوارى وتتداخل وتؤدي الى أزقة لها أسماء تضحك غرابتها، وتصبح الأرض من التراب وعلى التراب أوساخ وماء وطن . وتموت الحركة وتختفي الحوانيت وتنقل البضاعة الى عربات يد أو صناديق معلقة في الحيطان . . وتفقد البيوت ما فوقها من طلاء وما في نوافذها من جديد . ويقل المارة من الكبار ويظهر الأطفال ويتكاثرون وكذلك يفعل الذباب، وتتضخم الملامح وتتورم وكأنما قرصتها دبابير، وتتهرأ الملابس وتتمزق وتفقد الكثير من أجزائها . ويظهر أناس بلا لباس، وتصيح اللغة سرسعة وأصوات وحروفا تتصاعد من حناجر شديدة البروز، وتملأ رائحة الطين والقدم الأنوف .

ويسوغلون في التقدم . . وتتلى الأزقة والمسالك وتؤدي الى مكان ليس له كيان، كل ما فيه يختلط بكل ما فيه، الأرض المرتفعة المكونة من أجيال متعاقبة من القاذورات والأتربة، بالأبنية المنهارة التي ناءت بما فوقها من أكوام وأعمار، ولون الأرض ذات الطين بلون الجدران ذات التراب، والمسلبس بالخرق المبعثرة في الطريق، ورائحة الناس برائحة الأرض برائحة البيوت، والهمهمات المنقطعة بهبهة الكلاب بالأبواب الكبيرة وهي تزيق وتفتح، والحركة البطيئة الميتة بالهوام الزاحفة، والمساكن المنخفضة المتربة بالقبور التي ترقد على مرمى البصر، وفرغلي المخلول لا يتغير احترامه ويسبقه بنصف

خطوة لا يريد أن يسبقه كثيراً ولا أن يتأخر، ولا يريد أن يوليه ظهره، ولا يستطيع أن يسير ووجهه الى الخلف، ويجامله بعقد ملامحه اذ المهمة التي جاءوا من أجلها خطيرة تستدعي عقد الملامح، والناس تحببه وهو يرد تحيتهم في اقتضاب. الناس تحببه وتسأله عن الأحوال ويحف به احترام هو الحاجب الذي لا حول له ولا قوة، ولا أحد

يعرفه في شارع الجبلية هو القاضي الذي له الحول والقوة.

ويمضون وحولهم خراب وبيت تتساند حتى لا تنهار، والناس هي الأخرى تتساند حتى لا تنهار. والعجوز يتحامل على شاب، والأعمى يسحبه صبي، والعليل يسنده جدار، والنبي وصي على سابع جار، وخيط خفي يجمع الكل ويربطهم معا وكأنهم حبات مسبحة وكأنهم روح واحدة تحيا في أجساد كثيرة متفرقة، والزمن لا قيمة له، فالطفل الرضيع على كتف أمه هو الطفل الذي يحب ويختلط بأكوام الزبالاة، هو الطفل الماشي الذي يتمنطق بالأحجية خوفا من العين، هو الطفل الميت أو الذي عاش، هو الصبي في ورشة أو محل، الغادي الرائح يقلد الممثلين والأراجوز ويتهجي ألفاظ السباب، هو الشاب في عفرينة أو جلاباب يجذب أنفاس السجائر المصنوعة من السبارس، هو الرجل العامل أو الرجل العاطل، هو الغائب عن الوعي بجوار حائط، هو الدائخ من الأفيون والبطالة والسيكونال، هو الشيخ الذي يقضي النهار يصلي ويدعوا للأولاد ويترحم على ما فات ويجمل لنفسه الآخرة.

والبنت العروس المخطوبة، هي الأم ذات الأطفال، وصاحبة
المنديل بأوبة هي المتشحة بالسواد، وضاربة الطفل هي المضروبة
من الزوج، والطابخة هي الملهوفة التي تبحث عما تسد به الأفواه.
ويأتيه صوت فرغلي وهو يشير الى البيت الوحيد المتماسك
ويقول:

- بيتي .

ويعزم بقوة ويشدد ويلعن شهرت التي جعلت رقبته
كالسمسة .

ويسأل عن الحارة السد ومتى يصلون؟ ويجيب فرغلي أنهم
فيها، في الحارة السد. وأن بيت شهرت قريب بعد خطوات .
ويمضون وتحف بهم نظرات مستغربة تتوجس، وراء كل نظرة كلمة
غريب. ووراء الغريب تساؤل، ووراء التساؤل خطر. .

والنساء الجالسات على العتبات ينسجن من السامة أحاديث
ومن الأحاديث مقدمات حزن، يرونهم فيتعجبون وتميل الرؤوس على
الرؤوس ويتقل الهمس من عتبة الى عتبة، وكأن بين العتبات
أسلاك. . ويقول بعضهن: بوليس. وتتحشرج الأصوات وهي تنطق
الكلمة. . وأخريات يتفاءلن ويقلن: صحة. ثم يرين فرغلي ويتحققن
منه فتتخفض الهمسات أكثر.

وأطفال وأطفال، وأطفال يتجمعون أمامهم وخلفهم
وعلى الجانبين، عيونهم ذابلة فيها رمد وعماص، ووجوههم صغيرة

تحمل كل ما فوق الطريق، وتتوافد معهم جيوش الذباب. ويصرخ
طفل وهو يقذف فرغلي بطوبة ويقول:

- محكمة!

ويلعنه فرغلي وينهره بلين. ويلتفت الباقيون الى اللعبة،
وتصبح «محكمة» على كل لسان، ويطير فرغلي وراءهم فيهربون
ويهج الذباب، ثم يعودون الى التجمع ويعود الذباب الى الطنين.

ويتأكد فرغلي من بيت شهرت ويسأل احدى الجالسات فتشير
الى بيت قريب، وينتقل الاسم على كل لسان وكل لسان يضيف
كلمة وتخميناً. ويترك الجالسات جلوسهن ويضمهن موكب الأطفال،
ولا يصبح فارق كبير بين سواد النساء وسحنة الأرض وزعيق الأطفال
وهمهمة الكبار، والشمس تصب أشعتها وتجعل كل ما فوق الأرض
يغلي ويفور وتتصاعد منه الروائح، والنهار يظهر كل شيء ولا يخفي
شيئاً، يظهر عن عمد واصرار وكأنه ينتقم ويشمت.

ويتنظر فرغلي وشرف على الباب وحولهما الركب، ويصعد هو
وحده البيت مظلم وبابه كفوهة العجوز الأترم وعود الكبريت لا ينفع
ويهبوي الى أرض المدخل، اذ الأرض منخفضة ولزجة وكلها طين،
والمدخل واسع كقبوة القرن المهجور. وشهرت في الدور الثاني
- هكذا قالوا - والدور الأول سواد في سواد، والرائحة لا تطاق،
والجدران متآكلة وكأنما نهشتها أفواه ثعابين. وعليها تموجات رشح
وأملح وكان النيل فاض وأغرق البيت ثم انحسر، وامرأة جالسة على

عتبة حجرة في المدخل تغسل وساقها بيضاء مكشوفة تضيء في الظلام تحديق فيه وتتوجس خيفة، وتنعقد يداها فلا تترك الغسيل ولا تغطي فخذها العاري، والسلم متآكل ومتداع وخشبه مخوخ ودرجاته تنقص درجات، والقدم تزيق، وخطر السقوط محقق. وعود كبريت عاشر ينطفئ. . . تطفئه ريح تهب من مكان خفي لا يرى، ريح باردة رطبة والجوف في الخارج حار، ريح باردة تنفذ الى النخاع فترج النخاع. والدور الثاني لا هو دور ولا هو ثان، عروق عارية كضلوع هيكل عظمي تصنع السقف بينها مهاوي وحفر، وحيطان شاخت ومالت وانحنت، وباب قريب من السلم. . . باب مكون من الواح قديمة غير ممسوحة ولم تجر عليها فارة، والخشب قد تغير لونه وأصبح رماديا أزرق، وعلى الباب عجين جفاف، وبراز طيور وحيوانات، وكف دم بنية، ووجه رسمه طفل بالطباشير كوجه جنه.

ويمد يدا لا تريد أن تمتد، ويدق بابا لا يحتمل الدق، ويطل وجه يقولها بها «عايزك في كلمة». ويصفر وجهها وكأنما سلط عليه كشاف في أول الأمر، ما أن يراه حتى يشحب ويظل يشحب ولا يكف عن الشحوب، والعينان صافيتان أول الأمر يعكرها ارتباك مفاجيء وخوف، ثم يمتد الشحوب الى بياضهما ولا يستقر للحدقتين قرار. هي شهرت قد رحبت به. وخرج صوتها متداعياً منهاراً كله ذهول وحيرة واستغراب. وتفتح الباب ويبدو جسدها يلفه جلباب رجالي قديم فيه شق يقسمه بالطول، والشحوب قد وصل الى قدميها وجعل أظافرها تبيض. ويضطرب. هذه المرأة المرتعشة سرقت ساعته.

الساعة معها لا بد فماذا يمنع من خنقها؟ ولماذا لم يعد لديه الحماس الأول؟ وعقله يتأرجح بين التقدم والتأخر. لقد جاء وانقضى الأمر.

وكما دبر تماما ها هو ذا يقولها ولكن بغير اللهجة التي دبر ان يقولها بها «عايزك في كلمة». ويصفّر وجهها وكأنما سلط كشاف أصفر، وتخاف، وتدعوه للدخول، وتحاول أن تمحو ارتباكها وتبتسم، وترتعش شفتاها وتفشلان في اداء الابتسام. يدخل هو ويعد العدة للتراجع، فممكّن أن يحدث أي شيء، قد يقتلوه أو يسرقوه أو تصرخ شهت وتستغيث. ومن مكان في الحجرة يندفع اليها أطفال ثلاثة، بنت في العاشرة طويلة ورفيعة جدا وسمراء وعيونها ضيقة وسوداء كالحبر، ووجهها رفيع وجامد ميت لا ينفع ولا يتحرك ولم يعرف الضحك، وشعرها أسود يلمع، ورائحة جاز، وضمفيرة مجدولة وأخرى سائبة، ومشط خشبي مغروز في قمة الرأس، وطفلان آخران. . بنت وولد أو بنتان أو ولدان تشبها بأمهما وأمسكا بثوبها، ومن الظلام المشبع برائحة الجاز تنصب عليه أربعة أزواج من العيون المستغربة تتطلع وتتساءل ويرتعش. ويبتلع ريقه ويردد كالأسطوانة المعبأة:

- عايزك في كلمة.

وتفريق شهت وكأنما أعطيت حقنة.

وتطرد الأولاد وتغلق الباب، ومع هذا يتشبث الأولاد بالباب المغلق وتبدو عيونهم لامعة من خلال الشقوق كعيون الصراصير ترقب ما يجري في الحجرة. ويلهث ويدور برأسه، الحجرة ضيقة

كالصندوق الذي ضاع مفتاحه، والضوء يختنق وهو يتسرب اليها من نافذة علوية، وسرير قديم كالح ذو عمدان رفيعة كالבوص، وحديده كله صدأ، ومرتبته أغمق من الصدأ، وفي ناحية شيء كالدولاب قديم، وجوال فيه ثقب مملوء لحافته ومركون بجوار الحائط وعلبة أرنب، ومرتبة في الركن الآخر وكراكيب وصفائح وأخشاب متناثرة، وعلى الحائط صورة الامام علي يشق بسيفه رأس كافر، والكافر رأسه مشقوق ومع هذا لا يزال ممطيا حصانه واضعا قدميه في الركاب، وعلى المرتبة يتحرك شيء، وإذا بالشيء رجل.. رجل طويل أسمر نائم ورأسه كالزلعة الراقد بجوارها، وعلى وجهه رغم نعاسه تكشيرة، وجهته معقودة، ممدد بطوله على المرتبة وحزامه مفكوك، وملابسه الداخلية قديمة سوداء وظاهرة من فتحة بنطلونه، وللمرة الثالثة يقول:

- عايزك في كلمة..

ويعود الكشاف الأصفر ينصب على وجهها وتقول:

- خير..

وتخرج الكلمة مرتعشة معتقدة تماما أن لا خير هناك. ويقول

كالمنوم:

- الساعة فين؟..

ويتخشب جسدها وتدب على صدرها بيدها، وتنكر برموشها، وتقسم بازدياد شحوبها. ويعيد السؤال، وتغلظ في القسم، وتصر

على الانكار، وشيء رفيع ثاقب يخرج عقله ويؤكد له أنها السارقة .
 ويمضي كالمحكوم عليه في الخطة يكيل لها الكلمات ويركز الاتهام .
 وتختنق وهي ترد، وتتحسرج الكلمات على فمها وهي تنكر، ويأخذ
 دور وكيل النيابة وتأخذ دور المتهمة . ويصبح صاحب حاجة وتحاول
 أن تكون صاحبة كرامة، ويصرخ كالسيد المسروق وتمسكن
 كالخادمة السارقة . ويطغى على الحوار صرخات تأتي من الباب . .
 البنت الكبيرة تبعد اخوتها وهي تسمع ما يوجه الى أمها، والطفلان لا
 يريدان ترك مكانهما، وكأنما يدركان بغريزتهما أن أمهما شهرت في
 خطر ولا يستطيعان تركها تواجه وحدها الخطر .

وتزداد عصبيته ويهدد بالبوليس وبأن ضابط المباحث
 على الباب، وبدو عليها عدم التصديق، فيفتح الباب ويعوي الباب
 وهو يفتح، ويأخذها الى النافذة وتطل ويطل، ويقول:

- يا حضرة الضابط .

ويقول شرف:

- أيوه يا سعادة البيه؟

ويغمز بطرف لسانه ويكاد يضحك . ثم يذهب الهزل عن وجهه
 فجأة . . وتتجمد ملامحه ويخاف عليه أن تنكشف النمرة، فيرتد
 عن النافذة . وتراجع شهرت الى الحجرة ويتبعها ويقول:

- يا الساعه ياسنة سجن .

وترتجف خطواتها ويعود فيقول:

- واتي عندك أولاد يتبهدلوا.

ويلاحظ توقفها عن المسير وهو ينطق الأولاد، فيردد ما قاله ويشدد على الأولاد.

وتحاول أن ترغم نفسها على البكاء وتعتصر عينيها، فلا تبكي ولا تهبط دمعة واحدة، ويتقلب الرجل النائم ويغمغم وكأنه يحلم. وتصيح شهرت:

- جوزي ..

ويزداد عصبية وتتوتر أعصابه ويهمس بالتهديد، وشيء في داخله يهمس .. الأم تدافع عن وجود العائلة، والزوج يائس نائم .. ويزداد حدة، ويكسي وجهه بقناع مخيف، ويطلق تهديده الأخير. وتتعلق عيناها بعينه، وعيناه ليس فيهما ذرة رحمة، وليس في نفسه ذرة قسوة، ولا يدري لماذا يهدد ولماذا هو مصر ولماذا لا يرحم ولماذا لا يزداد قسوة، وتقول له:

- فتش.

ويتأكد لديه انها السارقة. ويندفع يفتش بقدمه .. الجوال مملوء «بقوالح» الأذرة، وتحت السرير عروسة خشب وخرق قديمة كالجلابيب، والعطن يملأ خياشيمه، وعدة أحذية متهالكة لا تصلح للارتداء فوقها غبار كثير، وماسورة حديدية، والدولاب طوله متر وطلاؤه بني وفوقه طبقة سوداء سمكية .. وداخله حبة بطاطس مسلوقة عليها صرصار، ويصلتان وورقة ملح لم تفتح، وعند الجزء الأسفل

منه لمعت عيناه فقد وجد أشياء تخصه ، علب ملبس ذات زخارف ،
وصندوق خشبي مطعم ، وأقلام حمراء وورصاص وغطاء قلم حبر ،
ونصف ولاعة قديمة ، وتجيئه غمغمة شهرت تفسر وقد أدركت سر
لمعة عينيه وتقول :

- للأولاد . . يلعبوا بيها .

ويجد جورباً من جواربه ممزقا وقديما وفيه رقع ومغسول ،
ويحس بخجل يهبط بقلبه الى قدميه ويرتفع بدمه الى رأسه . ويثور
في نفسه بركان ، ويخرج فحيحا ملتها من ملامحه وفمه ولسانه ،
ويسألها لآخر مرة عن الساعة .

ويتململ الزوج ، ويدفع الذباب بيد نائمة ، وتعلو ضجة الأولاد
عند الباب ، وتفتح شهرت فمها وتطبقه ، وتخرج من حلقها أصواتا ،
وشعرها منكوش ، ورعها ينكش شعرها أكثر ، وجسدها يهتز في
الثوب الرجالي الواسع ، ويدها مشلولة على يدها الأخرى ، وعيناها
تبرقان في سرحان تائه ، وهو أحيانا يفيق لنفسه ، ويدرك انه يمثل ،
أنها لا تمثل ، وأنها تستحق . وأنها لا تستحق ، وأن ملامحها القوية
التي أذلته تجف أمامه من العذاب ، وأنه لا يحس بنشوة النصر ، وقوى
عديدة تتجاذبه ، ويزداد تحديقه خطورة . وأخيرا تفر دمعة واحدة من
عينيه ، وتفر من فمها كلمة ، وتتبع الدمعة دموع ، والكلمة تتبعها
كلمات ، ويتبين انها تقول :

- أنا لقيتها والنبي وكنت ناوية أرجعها .

السادجة! يا للسهولة؟! كيف تعترف بمثل هذه السرعة؟! لقد
أعد نفسه لمعركة طويلة.

وتتحرك وتمد يدها الى الدولاب المفتوح، وتستخرج من رفه
الأعلى كوبا زجاجيا مكسورا، وتمد اصبعين يرتجفان داخل الكوب،
ويخرج الأصبعان ببطء وبينهما الساعة. . ساعته! وتمدها اليه دون ان
ترفع بصرها، ويهبط عليه ماء صاعق بارد، ويهدأ كل شيء في
صدره، ويحس بصدرة يضيق، وبالحجرة نتنة بشعة، وتبرق الساعة
في اليد الممدودة. ويجذبه البريق ويتناولها ويتفحصها، ويفرح بها
فرحا صبيانيا كما يفعل الأطفال، ويزجر نفسه ويفرح، ويقلب الساعة
بين يديه ويضعها على أذنه ويجدها دائرة، وحشرجات رقاصها لم
تزل كما هي، ويجدها مضبوطة وتشير الى الرابعة وخمس وعشرين
دقيقة، ويجد نفسه على السلم.

وينتبه ويتوقف، ويركبه احساس خفي أنه أخطأ، وينادي
شهرت، وتبدو عند بابها قائلة نعم، وأولادها قد عادوا يتشبثون بها،
والبنت الكبيرة عيونها سوداء رهيبة واقفة ترقب أمها بوجه جامد ومن
بعيد ويدها ممسكتان بالضفيرة السائبة. وهي - شهرت - ثابتة في
مكانها لا يتحرك لها رمش أو ذراع. ويتردد، ويسألها لماذا أخذت
الساعة؟ وتجيبه وتقول:

- الماهية ما تكفيش. . وحضرتك. . مرضيتش.

- ويسألها فتقول:

- البلوزة . . كنت عايزة ادفع حق خياطتها .

فيسألها فتقول :

- الملايا تكسف .

وعيناها لا أثر فيهما لأي انفعال، محدقتان في الفراغ، تهبط
منهما الدموع بلا بكاء، كالسماء حين تمطر بغير سحب . وتجيئه
الاجابات ملفوفة في ضباب، ورأسه يهتز رافضا أن يصدق، ويسألها
وكأنه يشارك في حل مشكلتها : لم لم ترهن السرير أو تبيعه بدل
السرقه ؟ وتسيل دموع كثيرة من عينيها وهي تقول ان السرير ليس
سريرهم .

- أمال سرير مين ؟

- سرير أم هانم .

- أم هانم مين ؟

- شريكتنا في الحجرة .

ويكاد يوقف الكلمات ليفكر فيها قبل أن تلمس آذانه، ولكنه
يبتلعها ويتركها تغيب في لا وعيه .

ويرتفع صوت خشن من الداخل يسأل عن الضجة والحكاية
ويشاءب .

وتستدير لتجيب، ويستدير هوليهبط على عجل .

وحين يصل الى الحارة يتنفس بقوة، وينطلق غير عابىء

بالواقفين أمام البيت، ويسرع والهمسات تنمو وتبلغ أسماعه وتنتشر،
ثم تبرد وتذبل وتأخذ مكانها همسات جديدة.

ويستحثة فرغلي وهو يتسم في قبح بشع :

- هيه؟!

ولا ينطق بحرف، ويمضي وأناس من حوله تمضي، واسئلة
تتري، والعيون المنصبة من الجانبين تتكاثر. . عيون واسعة عميقة
مستفهمة تزيج رموشها في ثقائل مريض وتتساءل عما فعل الأفندية
القادمون بواحدة منهم؟ وتلتقي النظرات عبر الطريق تكاد تصنع أمامه
أسوارا شائكة توقفه وتقيده، والحاح فرغلي لا ينقطع، والرذاذ
المتطاير من فمه لا يكف، ويحس بالناس تكاد تطبق عليه جبا في
الاستطلاع. فيخرج الساعة من جيبه ويلفها حول معصمه ويقفل
الابزيم. وتتصاعد الهمهمات من خلفه. ويزعق فرغلي ويسري
الخبر. وتتلاصق النسوة وتنخفض الهمسات، وفي أعقابها ترتفع
دعوات تطلب للولاياء الستر. ويزمجر الرجال ويتضاحك الصبية
وينتشر الحادث من نافذة الى نافذة وعبر السطوح، ويحس بشهرت
تمزق وتهلhel وتتقاذف الأفواه أشلاءها، وهي شاحبة صامته خائفة
مستسلمة لا تملك من أمر نفسها شيئا.

ويدرك العربة وكأنها طوق النجاة، ويتبين أن شرف غير
موجود. ويسأل عنه فرغلي فيقول انه نفض يده من الأمر كله فجأة
وقال إنه لم يعد يستطيع ومشى. ولا يحس بأية غرابة وكأنه كان يتوقع

من شرف هذا. ويهرب من اعتذارات فرغلي التي يعقبها بو عبده وتهديداته وكأنه سارق الساعة، وكأنه المسئول عن الكون وعمدة الحقة. ويدلف الى العربة ويضغط على محركها كأنما يضغط على ضمير يؤلمه، وتندفع الى الأمام.

وتعود الشوارع تنتظم وتتسع ويصبح لها طول واستقامة، وتعود الملابس تتكامل وألوانها تجدد وتزدهر، والذقون تزال، والشوارب تنمق، والملاح تصغر وتدق، وتختلط العربات بالسابلة. . عربات كارو أول الأمر، ثم أجرة مستهلكة، ثم أجرة وملاكي وأوتوبس. ويتسع صدره وكأنما انزاح عنه كابوس ويزداد اتساعا، ويخف الهواء ويخف، وتقل أحماله وتكبر رفعة، والدنيا تتفتح وتفتح.

ويجد نفسه في ميدان قصر النيل.

والنسمات بدأت تهب، والوجوه تفيق من حر اليوم، والكوبري يمتلئ بالمتنزهين، والماء كثير كثير، والعمارات بعيدة بيضاء كأبراج الحمام، والمدينة جميلة جميلة، أجمل من أية مرة رآها فيها، والمنظر ضخم وحاشد، وأنفاسه تتلاحق في نهم، ورأسه يدور.

وما يكاد يصل الى الدور السابع من عمارته بشارع الجبلية حتى يسرع الى الشرفة ويتهاوى على مقعد، ويسند رأسه ويحاول أن يستعرض من جديد كل ما مر به.

- ٨ -

بعد ساعات قليلة كانت حجرة المكتب لا تزال كما هي ، ولا
تزال لها نفس شرفتها الشاهقة المطلة على النيل .
وكانت الشرفة تشهد - كعادتها كل ليلة - ما يطرأ على القاهرة
من تغيير ساحر مذهل .

النور القوي الذي كان يضيء المدينة طيلة النهار أخذت حدته
تهدم ، ولونه يشحب ويتغير ، وكأن يدأ خفية قد امتدت إلى شعلة
الشمس الموقدة ومستها . واصفر الضوء فاصفرت المدينة . .
وانطلقت من خلالها آلاف من شعاعات الشمس الغاربة وزجاج
يعكسها ويزغلل بها الناظر .

واحمر الضوء .

وتلبدت السماء وحدها بالحمرة . أما المدينة فقد كستها رمادية
مغربية زرقاء .

ثم اسودت الأرض .

وأظلمت السماء .

وكاد الليل يبتلع المدينة لولا ملايين من أضواء صغيرة بذرت فوق سطح الأرض، وما لبثت أن نبتت وتغذت على الظلام وترعرعت، وأصبحت أنواراً براقاً تلمع وتبرق.

ثم نضجت الأضواء وتفتحت لها أزهار، وانتشرت في جو المدينة أنوار حمراء وخضراء وزرقاء وصفراء ذات أشكال وأسماء وأنواع.

واستحال الظلام إلى كرنفال.

كانت الشرفة وحدها هي التي تشهد التغيير رغم أن الأستاذ عبد الله كان لا يزال جالساً فيها، مستلقياً على الكرسي المريح، رأسه ثابت لا يتحرك، وعيناه ساهمتان مثبتتان كعيني ميت، وعقله هائم تائه غير مكترث بالنهار الذي ولى أو الليل الذي أقبل. يحدق في الفراغ المطبق المظلم، ويجوب - دون أن يحرك رأسه - سماء المدينة ذات المحصول الوافر من الأضواء، ويهيم ويحاول أن يركز انتباهه ويصره في نقطة تائهة في ظلال الليل، بعيدة عن الأضواء، واقعة لا بد هناك. هناك في أقصى المدينة وراء مثذنة الأزهر. يهيم يهيم وبين الحين والحين يبرق معدن الساعة الملفوفة حول معصمه فيخطف بصره، ويجذب عينيه الغارقتين في الظلام. ويحس بشيء ملتهب ينبثق في صدره كالترزيف، ويكز على شفثيه دون أن يدري كنه ما يملكه، وينفجر في رأسه خاطر ملح: أن يخلع الساعة ويرميها على طول يده في النيل.



غير أنه لم ينفذ المخاطر أبداً . . وطبعاً لم يقض الليل في الشرفة . وفي الصباح كان يتوجه إلى عمله كالمعتاد فقط كان قد عاوده ذلك الصداق الملعون .

* * *

ولا تزال الساعة حول معصم الأستاذ عبد الله ، كلما رآها تذكر تلك الرحلة الغريبة ذات الكابوس وازداد اعتزازاً بساعته وبنفسه ، بل إنه ظل يريها لأصدقائه ومعارفه وكل من يلقاه أياماً كثيرة . وكان يفعل هذا كمقدمة لا بد منها لرواية ما حدث له . وكان يغفل في قصته . كثيراً من التفاصيل ، ولكنه كان ما يكاد يصل إلى الحارة السد حتى يعاوده ذلك الاحساس بالنزيف ، فيندفع بوتر الوصف وينتقل إلى الجزء التالي من القصة ، ويصف الهجوم الخاطف الذي انهال به على شهرت فتهافت أمامه وناولته الساعة .

ولم يسمح لفرغلي أبداً أن يتحدث أمامه عنها ، ورغم هذا كان يسمح لأذنه أن تلتقط منه بعض أخبارها وما يوجهه إليها من سباب واتهامات ، مبنياً كيف فسدت وأصبحت ذات سمعة وسمت نفسها أميرة .

كل ما حدث أنه ذات يوم رآها . . رأى شهرت في شارع الملكة وهو مار بعربته . فأبطأ من سيره . . كانت واقفة على محطة الأوتوبيس ، وكان واضحاً أنها لا تنتظر الأوتوبيس ، وكانت تصبغ شفيتها بروج حقيقي وترتدي الجيب الرمادي الذي كانت تأتي به . وأهم شيء أنها كانت ترتدي فوق الجيب . . بلوزة جديدة .